جي دو موباسان

بيير وجان

رواية

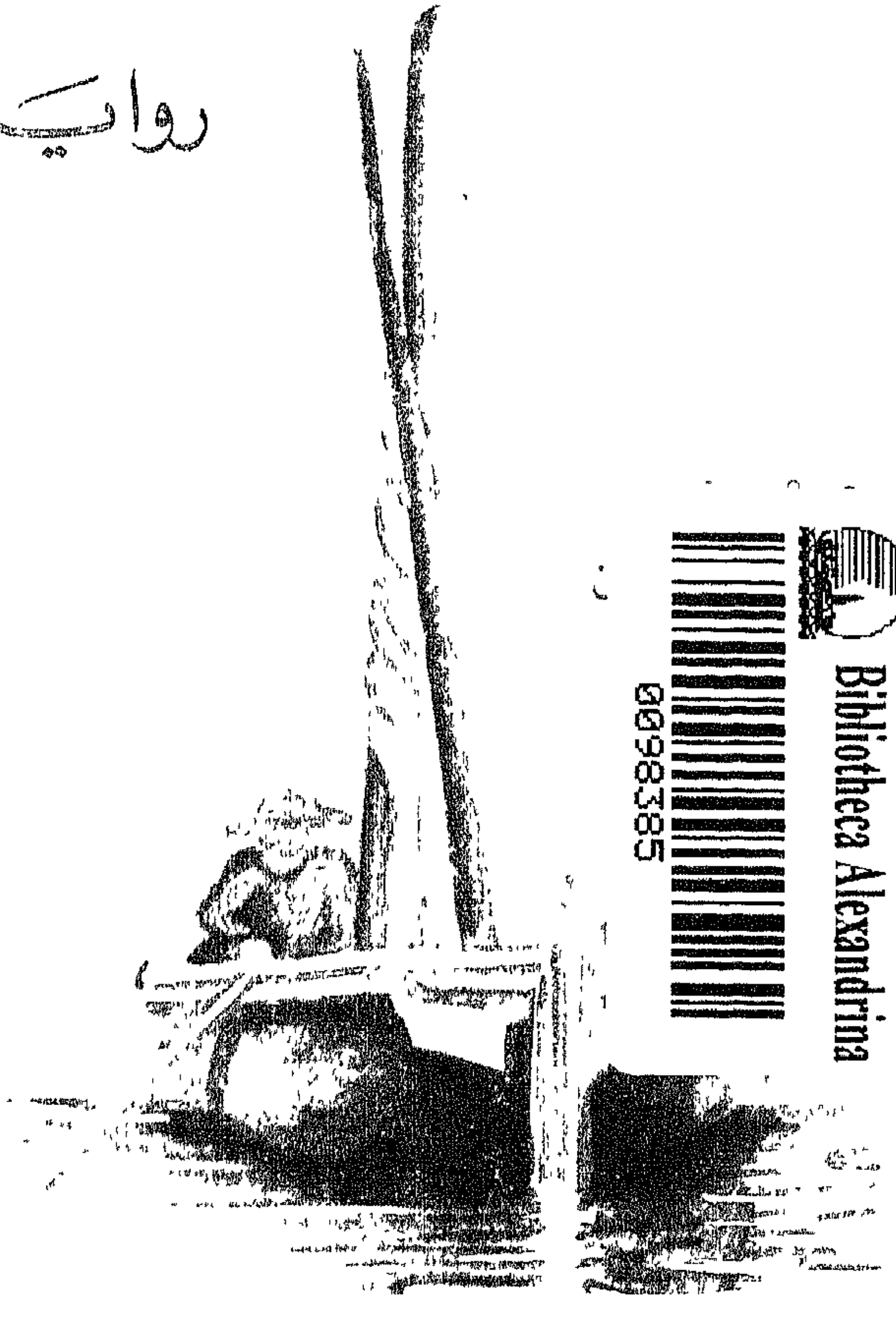

ـزار أباد

Bibliotheca Alexandrina
0098385

دمشق ـ أوتوستراد المزة
هاتف
٢٤٤١٢٦ ـ ٢٤٣٩٥١ ـ ٢١٣٨٢١
تلكس: ٤١٢٠٥٠
ص.ب: ١٦٠٣٥
العنوان البرقي
طلاسدار
TLASDAR

ريع الدار مخصص
لصالح مدارس أبناء الشهداء في القطر العربي السوري

بیروجان

جميع الحقوق محفوظة
لدار طلاس للدراسات والترجمة والنشر

الطبعة الأولى
١٩٨٩

غي دوموباسان

بيير وجان

رواية

نزار أباظة   بول كواتلان

الآراء الواردة في كتب الدار تعبر عن فكر مؤلفيها
ولا تعبر بالضرورة عن رأي الدار

عنوان الكتاب باللغة الفرنسية

GUY DE MAUPASSANT

PIERRE ET JEAN

Texte intégral

١

صاح الأب رولاند فجأة :

ـــ زفت !

وكان بقي ساكناً ربع ساعة لا يتحرك ، عيناه مثبتتان على الماء ، وهو يرفع من حين لآخر ، وبحركة خفيفة جداً خيطه المتدلي في عمق البحر . واستفاقت السيدة رولاند التي كانت تغفو خلف السفينة بجانب السيدة روزميلي المدعوة لحفلة الصيد هذه ، استفاقت واستدارت برأسها إلى زوجها قائلة :

ـــ ما بك يا جيروم !

فأجاب الرجل الغاضب :

ـــ لم تعد الحال على ما يرام ، لم أصطد شيئاً منذ الظهر ، لا بد من الصيد مع الرجال ، لأنّ النساء يؤخرن عن موعد السفينة .

وشرع ولدا رولاند بيير وجان يضحكان معاً وهما على جانبي السفينة، وكان مع كليهما خيط صيد لفه على إصبعه. وقال جان:

ــ ما بالك لا تتلطف مع ضيفتنا يا أبت!

فاضطرب السيد رولاند واعتذر قائلاً:

أستميحك عذراً يا سيدة روزميلي، فأنا هكذا، أدعو السيدات، لأنني أحب أن أكون معهن، ثم حيما أشعر بالماء مس تحتي لا أفكر إلا بالسمك.

واستيقظت السيدة رولاند تماماً، وجعلت تشاهد بهيئة حانية الآفاق الممتدة للجروف والبحر، وتمتمت تقول:

ــ ومع ذلك فلديكم صيد وافر.

إلاّ أن زوجها هزّ رأسه قائلاً:

ــ لا.

وألقى في الوقت نفسه نظرة راضية على السلة، حيث السمكات التي صادها الرجال الثلاثة مازالت تضطرب اضطراباً خفيفاً، فيصدر صوت خافت من حراشفها اللزجة وزعانفها التي ترفعها بجهد عاجز ليّن، وهي تتثاءب في الهواء القاتل. وأمسك الأب رولاند بالسلة بين ركبتيه، وأمالها، وأسال موج السمكات الفضية ليرى عمقها ويشاهد اضطرابها عند

احتضارها الذي بدا أشدّ وأقوى، وليشمّ الرائحة الواخزة المنبعثة من أجسادها، رائحة زنخة لصيد طازج تنبعث من بطن السلة المملوءة. وشمها الصياد العجوز بحماس، كما تُشم الورود. وأعلن يقول:

ــ يا الله! إنها طازجة.

ثم تابع يسأل:

ــ كم اصطدت أنت أيها الطبيب؟

فأجاب بيير ابنه الأكبر، وهو رجل في الثلاثين من عمره، ذو سالف أسود مقصوص كسوالف القصاة وقد حلق ذقنه وشاربيه:

ــ أوه، غير كثير، ثلاثاً أو أربعاً.

واستدار الأب نحو ابنه الثاني وقال:

ــ وأنت يا جان؟

فابتسم جان الولد الضخم الأشقر ذو اللحية الكثيفة، وهو الأصغر، وتمتم يقول:

ــ مثل بيير تقريباً، أربعاً أو خمساً.

وهكذا كان الولدان في كل مرة يكذبان الكذبة ذاتها التي تسر الأب رولاند.

ولف الأب خيطه على الجداف، وشبّك ذراعيه على صدره وأعلن:

ـــ لن أحاول بعد اليوم أن أصطاد بعد الظهيرة، فعند الساعة العاشرة ينتهي الصيد، وحينئذ تعزف هذه الأسماك اللئيمة عن التقام الطعم، وتفضل النوم في الشمس.

ثم نظر الرجل إلى البحر حوله بعين المالك الراضي.

كان السيد رولاند يشتغل من قبل صائغاً في باريس وبسبب حبه غير المحدود للملاحة والصيد، انتزع نفسه من دكانه مكتفياً بما تحصّل لديه من مال، وعاش حياة متواضعة من إيراداته.

مضى إلى ميناء الهافر واشترى مركباً وأصبح ملاحاً هاوياً. أما ابناه بيير وجان، فبقيا في باريس، ليتابعا دراستهما، وكانا يأتيان في العطلة من حين لآخر، فيشاركان أباهما في متعته.

وشعر بيير ـــ وكان يكبر أخاه بخمس سنوات ـــ بعد انتهائه من الدراسة الثانوية بميول متتابعة إلى مهن مختلفة، فجرّب منها ست مهن، واحدة بعد الأخرى ونفر منها كلها بسرعة، واندفع في آمال جديدة. وجذبه الطب في آخر المطاف فشرع يعمل بحماس، وتخرج طبيباً بعد دراسات قصيرة كافية، وبعدما حصل على إجازات من الوزير خولته اجتياز المراحل المطلوبة.

كان مبتهجاً، ذكياً، متلون المزاج، صلباً، مملوءاً بالخيال وبالأفكار

الفلسفية، وكان جان أشقر بمقدار ما كان أخوه أسمر، هادئاً بمقدار ما كان أخوه منفعلاً، حليماً بمقدار ما كان أخوه حقوداً. درس القانون دونما عثرات ونال الاجازة فيه في الوقت الذي حصل بيير فيه على إجازة الطب.

كان كلا الاثنين إذن يستجم مع أسرته، وكان كلاهما يفكر أن يسكن في ميناء الهافر إن مكنته الظروف المناسبة. ولكنّ حسداً غامضاً هبط عليهما يشبه الغيرة الغامضة التي تنمو بشكل خفي بين الإخوة أو الأخوات وتبقى حتى سن النضوج، ثم تتفجر بمناسبة زواج أحدهم أو عند سعادة تهبط عليه. وأيقظت هذه الغيرة فيهما بغضاء الأخوة غير المؤذية. صحيح أنهما كانا يتبادلان الحب، إلا أنهما كانا كذلك يتربصان كل منهما بالآخر. كان بيير في الخامسة من عمره عندما ولد جان، فجعل ينظر إليه بعدوانية الحيوان الصغير المدلل، إلى هذا الحيوان الصغير الآخر، الذي ظهر فجأة بين ذراعي أمه وأبيه وهما يلاعبانه ويحبانه.

وكان جان منذ طفولته مثالاً للرقة والطيبة والأخلاق المتزنة، في حين صار بيير يغضب كلما سمع من حوله يمدحون هذا الولد الضخم مدحاً لا ينتهي، بدت له رقته رخوة، وظهرت طيبته حماقة، ورأى تعقله سذاجة. وأخذ أبواه البسيطان اللذان كانا يحلمان لابنيهما بمكانة إجتماعية شريفة ومتواضعة، أخذا على بيير تردده وحماسته ومحاولاته المخفقة، واندفاعاته العاجزة تلقاء الأفكار السامية والمهن البراقة. ومنذ أصبح رجلاً لم يعد يقال له: «انظر إلى جان وافعل مثله» ولكنه كان كلما سمعهم يرددون: «فعل

جان كذا، وصنع جان كذا» يفهم جيداً معنى تلك الكلمات والإشارة الخفية فيها.

وكانت أمهما امرأة ذات نظام، بورجوازية مقتصدة، عاطفية قليلاً، ناعمة الروح، لطيفة كعاملة الصندوق، وهي لا تني كل يوم تهدئ من المنافسة القائمة بين ابنيها، المنافسة التي تسببها صغائر الحياة المشتركة. وما لبث أنه عكر سكينتها مؤخراً حادث بسيط خافت من مغبته؛ ذلك أنها خلال الشتاء، وفي الوقت الذي أنهى فيه ولداها دراساتهما التخصصية، التقت بجارة لها تدعى السيدة روزميلي، وهي أرملة ضابط بحار مات في البحر قبل سنتين، وكانت الأرملة الشابة صغيرة السنّ، عمرها ثلاث وعشرون سنة، سيدة واعية تعرف الحياة بغريزتها كالحيوان الطليق. وكانت كما لو أنها ترى الأحداث وتتحملها وتفهمها وتحكم عليها بعقل سليم محدود، وقد اعتادت أن تزور في المساء هؤلاء الجيران المحبوبين الذين كانوا يقدمون لها كأساً من الشاي، وتشتعل عندهم بالكنفا وتأخذ معهم في الثرثرة. وكان الأب رولاند بسبب اندفاعه الأحمق في أن يكون بحاراً يسأل الصديقة الجديدة دون انقطاع عن الضابط المتوفى، فتتحدث عنه من غير تردد، وتحكي رحلاته وقصصه القديمة، ذلك أنها امرأة عاقلة تحب الحياة وتحترم الموت.

ولما وجد ابناه بدورهما هذه الأرملة الحسناء في البيت أخذا يتغزلان بها، ليس عن رغبة نابعة من الإعجاب، بل بقصد أن يفوز كل منهما على

الآخر. وكانت أمهما المرأة الحريصة العملية ترجو مخلصة أن يفوز بها أحدهما، لأنّ الحارة الشابة غنية. لكن الأم تحب بالمقابل ألا يتأثر الطرف الثاني.

والسيدة روزميلي، زرقاء العينين، شعرها كتاج تتطاير شعراته لأقل نسمة، يبدو على مظهرها شجاعة وإقدام وميل للمشاجرة لا ينم على ما في نفسها من أسلوب الحكمة. بدا منذ حين أنها تفضل جان وتميل إليه، لأن طبيعته مشابهة لطبيعتها. ولم يظهر هذا التفضيل مع ذلك إلا في تغير بصوتها ونظرتها لا يكاد يبين، وإلا في سؤالها عن رأيه من حين إلى حين. ربما أحست أن رأي جان يدعم رأيها وأن بيير مخالف لها، فكانت عندما تتحدث عن أفكار الطبيب السياسية والفنية والفلسفية والأخلاقية تقول من وقت لآخر: «كلامك الفارغ» وعندئذ ينظر إليها نظرة القاضي الباردة، الذي يدين النساء، كل النساء، هذه الكائنات المسكينات.

ولم يدعُها الأب رولاند قبل عودة ولديه، ولا مرة واحدة إلى رحلات صيده إذ ما كان يصطحب زوجته أبداً، لأنه يحب الخروج إلى الصيد قبل الفجر بصحبة الكابتن المتقاعد (بوسير) الذي كان التقى به مرة عند المد البحري، فأصبح منذ ذلك الوقت صديقه الحميم، وبصحبة البحار العجوز الملقب بـ (جان بار) الذي يعمل في حراسة المركب. وفي إحدى أمسيات الأسبوع الماضي، بينما كانت السيدة روزميلي تتعشى عندهم قالت لرولاند:

ـــ لا بد أن يكون الصيد ممتعاً جداً؟

فسُرَّ الجوهري المتقاعد في قرارة نفسه بكلامها، وأمسكته رغبة الكاهن يريد الحصول على اعتراف المؤمنين، فصاح قائلاً:

ـــ أتريدين الذهاب للصيد؟

ـــ نعم، طبعاً.

ـــ الثلاثاء القادم؟

ـــ نعم، الثلاثاء القادم.

ـــ هل تستطيعين الخروج في الخامسة صباحاً؟

فأطلقت المرأة صيحة استغراب، وقالت:

ـــ آه.. كلا!

فخاب أمله، وفترت همته، وارتاب في تلبيتها للدعوة، وسألها مع ذلك:

ـــ في أي ساعة تستطيعين أن تخرجي؟

ـــ في التاسعة طبعاً..

ـــ ليس قبل ذلك؟

ـــ لا، ليس قبل ذلك، والتاسعة مبكرة جداً.

وتردد الرحل . إنه بدون شك لن يصطاد شيئاً ، لأن السمك عندما ترتفع حرارة الشمس لا يقع في الشرك . ولكن الأخوين أسرعا لتوهما ، فنظما الرحلة تنظيماً كاملاً .

وفي الثلاثاء التالي ألقى مركب (اللؤلؤة) مرساته عند الحجارة البيضاء لرأس (لاهيف) واصطاد ركابه الأسماك حتى الظهر ، ثم أخذوا غفوة ، ثم صادوا من جديد دون أن يحصلوا على شيء . وعندما أدرك الأب رولاند متأخراً أن السيدة روزميلي لم تكن تحب الصيد ، ولا يعجبها حقيقة إلا النزهة البحرية ، وعندما رأى خيوط صنارته لم تعد تهتز بالصيد ، صاح من غير تفكير ، وهو يتحرك كمن نفد صبره : « زفت ! » . قال ذلك بشدة مخاطباً السمك الذي تعذر عليه الإمساك به ، والأرملة اللامبالية على السواء .

نظر إلى السمك في السلة ، سمكه هو ، وحملق فيه بفرح البخيل واهتزازه . ثم رفع عينيه إلى السماء ، ولاحظ أن الشمس تهبط نحو المغيب ، فقال :

ــ ما رأيكم أيها الأولاد أن نرجع قليلاً ؟

فسحب كل منهما خيطه ، ولفّه ، وعلقه بقطع الفلين والشصّ ، بعدما نظفه ، وانتظر .

وقام رولاند ليستطلع الأفق على طريقة الربان فقال :

— لم يبق من رياح، يجب أن نجدّف يا أولاد.

وفجأة أضاف قائلاً وذراعه ممدودة نحو الشمال:

— عجباً، عجباً، هذه سفينة من ميناء ساوتمبتون.

وعلى البحر المسطح الممتد كقماش أزرق لا حدود له، يلتمع بانعكاسات الذهب والنار، صعدت هناك في الاتجاه الذي أشار إليه غيمة مسودة في السماء الوردية، لاحت تحتها السفينة وقد بدت من بعيد صغيرة جداً. وشوهد إلى الجنوب كذلك دخان آخر كثير يتجه نحو رصيف ميناء الهافر الذي لم يكن يميز فيه الخطّ الأبيض والمنارة القائمة كقرن على الطرف إلا بصعوبة. وسأل رولاند:

— أليس هذا هو اليوم الذي ترجع فيه السفينة النورماندية؟

فأجاب جان:

— بلى يا أبي.

— أعطني المنظار، أعتقد أنها هناك.

وسحب الأب أسطوانة المنظار النحاسية، وأحكم وضعها على عينه باحثاً عن النقطة، وفجأة قال وهو مسرور بما يرى:

— نعم، نعم، هذه هي، كنت أعرف هاتين المدخنتين. هل تريدين أن تشاهدي يا سيدة روزميلي؟

فأخذت السيدة روزميلي المنظار ووجهته نحو السفينة البعيدة عابرة المحيط، فلم تفلح في وضعه باتجاهها، فما ميزت شيئاً سوى الزرقة ودائرة ملونة من قوس قزح تامة الاستدارة، ثم أشياء غريبة تشبه الكسوف، تدعو إلى الغثيان. فقالت وهي ترد المنظار:

ــ ما عرفت يوماً كيف استعمل هذه الآلة، وهذا ما كان يغضب زوجي الذي يبقى ساعات على النافذة يشاهد السفن المبحرة.

فانزعج الأب رولاند وأضاف قائلاً:

ــ ربما يكون السبب هو النقص في عينيك، لأن منظاري عظيم.

ثم قدمه إلى زوجته وقال لها:

ــ هل تريدين أن تنظري؟

ــ لا، شكراً، أعرف مقدماً أنني لن أستطيع.

السيدة رولاند امرأة في الثامنة والأربعين، لم تكن هيئتها تدل على عمرها، كانت تبدو في هذه النزهة ومع نهاية اليوم أكثر ابتهاجاً من الآخرين، بدأ شعرها الكستنائي يشيب، وتلبستْ بسحنة هادئة ذات وقار، سحنة راضية طيبة، يسر مرآها. ومع أنها كانت تعرف ــ على حد تعبير ابنها بيير ــ قيمة النقود إلا أن هذا ما منعها أبداً أن تذوق سحر الأفلام. أحبت قراءة القصص والشعر لا لقيمتها الفنية، بل لتستمتع بأحلام

اليقظة السوداوية الوجدانية التي توقظها عندها مثل هذه القراءات. وكان بيت الشعر المبتذل السيئ غالباً ما يهز عندها الوتر الصغير كما كانت تقول، فيشحنها باحساسات لرغبة خفية وواقعية تقريباً، تجد لذة في العواطف الخفيفة التي تعكر قليلاً نفسها المنسقة تنسيقاً مرتباً ككتاب الحساب. ومنذ وصولها إلى ميناء الهافر أخذ جسمها يسمن بوضوح ظاهر، وامتلأ خصرها وتضخم، كان فيما مضى ليّناً نحيلاً. وقد سرتها كثيراً هذه النزهة البحرية.

لم يكن زوجها شريراً، إلا أنه كان يعنفها من غير غضب ولا كراهية، شأن الباعة المستبدين في دكاكينهم وهم يأمرون بطريقة الشتائم. كان يتحفظ أمام الغرباء، ولكنه يتخلى عن تحفظه مع أسرته، فيتخذ هيئة مخيفة، رغم أنه كان يخاف الناس كلهم. أما هي فكانت ترضخ له دائماً بسبب كراهيتها للضجيج والمنازعات والنقاش غير المفيد، ولا تطلب منه شيئاً. وعلى هذا فلم تكن تجرؤ ومنذ زمن طويل على سؤال السيد رولاند أن يصحبها إلى نزهة في البحر، فاغتنمت بفرح عظيم هذه الفرصة وتذوقت لذتها النادرة الجديدة.

ومع بدء النزهة استرخت تماماً بعقلها وجسدها في هذا الانزلاق اللطيف على الماء، ولم تعد تفكر بشيء، ولم يسرح خيالها مع الذكريات ولا الآمال، وخيل لها أن قلبها يطفو كجسدها على شيء ليّن سائل لذيذ يتأرجح فيخدرها.

. وعندما أمر الأب بالعودة قائلاً: «هيا، إلى أماكنكم للتجديف». تبسمت وهي تنظر إلى ولديها يخلعان سترتيهما ويشمران عن سواعدهما أكمام قميصيهما.

أخذ بيير وهو أقرب الاثنين إلى المرأتين المجداف الأيمن، وأخذ جان المجداف الأيسر، وانتظرا أن يصيح الريّس: «إلى الأمام، بقوة» لأنه كان يهتم بالقيادة المنظمة على أحسن وجه.

أنزلا معاً مجدافيهما بجهد واحد، ثم استلقيا إلى الخلف، وجدفا بكل قوتهما وبدأت معركة إظهار القوة. كانت السفينة قد جاءت للصيد على مهل يحملها الشراع، إلا أن النسيم سكن، فاستيقظ اعتزاز الرجولة فيهما فجأة عندما سنحت الفرصة ليقيس أحدهما قوته بقوة الآخر.

عندما كانا يذهبان للصيد مع أبيهما عادة، يجدفان بلا نظام ولا قائد يوجه الدفة، إذ يكون رولاند منشغلاً حينئذ بالخيوط وينتبه بالجملة لسير المركب، فيرشده بحركة أو بكلمة: «خفف يا جان»، «وأنت يا بيير عجّل» أو يقول «هيا، أنت أيها الأول. وأنت أيها الثاني ضع قليلاً من زيت الذراع». ومن يشرد بذهنه قليلاً فعليه أن يجدف بقوة أكثر، ومن يعجل يلزمه تخفيف اندفاعه لترتد السفينة إلى الطريق الصحيح.

أما اليوم، فهما يستعرضان عضلاتهما، كان ساعدا بيير ذوي شعر، نحيلين، لكنهما معروقان. في حين كان ساعدا جان ضخمين أبيضين متوردين قليلاً، مع كتلة عضلات تتحرك فيهما تحت الجلد.

جذّف بيير أول الأمر تجديفاً حسناً، كانت أسنانه مضغوطة، وجبينه متجعداً، وأقدامه ممدوده، ويداه مشدودتين على المجداف الذي كان ينثني لطوله عند كل جهد. وكان مركب (اللؤلؤة) يتوجه نحو الشاطئ، والأب رولاند جالس في مقدمته، ترك المقعد الخلفي للمرأتين، وجعل يشهق عندما أمر يقول: «فليخفف الأول، وليعجل الثاني ....» فاندفع الأول بجهد مضاعف من الغضب ولم يستطع الثاني أن يجيب على هذا الإبحار غير المنظم.

وأخيراً أمر الريّس فقال: «قفا!» فارتفع المجدافان معاً، وجدف جان بأمر أبيه برهة وحده. وبدءاً من هذه اللحظة فاز على أخيه فأمسى أكثر حيوية، وشعر بالحرارة، بينما انقطع نفس بيير، وتهالك من التعب بسبب جهده المفاجئ، فأعيي وصار يلهث. وأوقف الأب رولاند المركب أربع مرات متتاليات، ليعطيه فرصة يسترد فيها أنفاسه، وليصحح الاتجاه.

تبللت جبهة الطبيب بالعرق، وشحب خداه، واعتراه خزي وغضب وتمتم يقول:

ـــ لا أدري ما بي، أحس بتشنج في قلبي. بدأت بداية حسنة، ثم ضعف ذراعاي.

وسأله جان:

ـــ هل تريد أن أجذّف وحدي؟

ـــ لا، شكراً، ستتحسن حالي.

وقالت الأم بانزعاج:

ـــ هيا يا بيير، ما معنى هذا؟، لست صغيراً يا بني.

فرفع كتفيه، واستأنف التجديف.

وبدا على السيدة روزميلي أنها لم تر ولم تفهم ولم تسمع. كان رأسها الأشقر الصغير يرتد إلى الوراء، مع كل حركة من المركب، حركة مفاجئة جميلة ترفع نهايات شعرها.

وصاح الأب رولاند: «انظروا، هذا مركب الأمير ألبرت يتعقبنا» فنظروا كلهم، فرأوا مركباً طويلاً مسطحاً، له مدخنتان مائلتان إلى الخلف، وعنفتان صفراوان مدورتان كالخدود.

ووصلت سفينة ميناء ساوثمبتون بسرعة فائقة وعليها الركاب، وقد شوهدت الشمسيات مفتوحة على ظهرها، كانت عنفتاها السريعتان تضجان، نضربان الماء، تقذفان بالزبد، وتعطيانها هيئة السرعة، هيئة البريد المستعجل. وكانت تقطع الماء باستقامة رافعة من الماء شفرتين رقيقتين شفافتين تنزلقان على جانبيها.

وعندما اقتربت السفينة من مركب اللؤلؤة رفع الأب رولاند قبعته محيياً، ولوحت المرأتان بمنديليهما، فأجابت على التحية بعض الشمسيات

التي اهتزت بحيوية على السفينة الكبيرة وهي تبتعد تاركة خلفها على سطح البحر الهادئ اللامع بعض التموجات الخفيفة.

وشوهدت سفن أخرى يغطيها الدخان أيضاً، تأتي بسرعة من كل صوب من الأفق نحو رصيف الميناء القصير الأبيض الذي كان يبتلع السفن كالفم سفينة بعد أخرى. وكانت مراكب الصيد والمراكب الشراعية الكبيرة بصواريها الخفيفة تنزلق في الماء تجرها سفنٌ قاطرةٌ غير مرئية، فتصل كلها سرعة أو ببطء نحو هذا الغول الأكول الذي يمتلئ من حين لآخر، ويردّ إلى البحر البعيد أساطيل السفن المختلفة تحمل السواري المتشابكة. وكانت قطارات البحر المستعجلة تفر إلى اليمين واليسار على بطن المحيط المسطح، بينما كانت إحدى السفن الشراعية تغادر الميناء جرتها قاطرة أُخرجتها، وهي ما تزال واقفة ترتدي في الوقت نفسه من الصاري الكبير حتى الصاري الصغير أشرعتها البيضاء أو البنية التي تبدو محمّرة في الغروب.

وتمتمت السيدة رولاند وعيناها نصف مغلقتين:

ـــ يا لله! ما أجمل هذا البحر!

فأجابت السيدة روزميلي متنهدة تنهدة عميقة لكنها خالية من الحزن:

ـــ نعم، ولكنه شرير أحياناً.

وصاح السيد رولاند:

ــ انظروا هذه هي السفينة النورماندية، تتقدم أمام المدخل، ما أكبرها! أليس كذلك؟

ثم فصّل الكلام عن ساحل البحر الواقع أمامهم...

ولفت رولاند الأنظار إلى أن ميناء الهافر يفصل مقاطعتي النورماندي السفلى عن العليا. ففي مقاطعة النورماندي السفلى شاطئ سهلي ينحدر في المراعي والمروج والحقول حتى البحر. وعلى العكس من ذلك فإن الشاطئ النورماندي العالي مستقيم في جرف كبير متعرج رائع يصنع جداراً عظيماً أبيض بعيد الحدود، تختبي في كل ثلمة منه قرية أو ميناء: (ايترونا)، (فيكان)، (سانت فاليري)، (لوتريبور)، (دييب)... إلخ.

ولم تنصت إليه المرأتان أبداً، كانتا مستغرقتين في راحتهما، متأثرتين بالنظر إلى المحيط المغطى بالسفن، التي كانت تجري كالحيوانات حول جحورها، وبقيتا صامتتين، مذهولتين بالأفق الواسع من الهواء والماء في غروب الشمس الرائع الذي يسبغ عليهما السكينة. وكان رولاند الوحيد الذي يتكلم فلا ينتهي كلامه، لأنه من صنف الرجال الذين لا يتأثرون بشيء، بينما تشعر النساء بعض الأحيان، وهن أكثر عصبية من غير أن يدركن السبب أنّ ضجيج الصوت غير الضروري ينفر كالكلام البذيء.

وكان بيير وجان ساكنين وهما يجدفان بتأن، ومركب اللؤلؤة يتجه نحو الميناء صغيراً جداً بالمقارنة مع السفن الضخمة. وعندما لامس الرصيف، كان البحار باباغري ينتظره، فأخذ بيد السيدتين، ليساعدهما

على النزول. ثم دخلت الأسرة المدينة في الوقت الذي كان الناس فيه يعودون إلى منازلهم بهدوء وكثرة.. الناس الذين يذهبون كل يوم إلى الميناء وقت المدّ البحري.

كانت السيدتان رولاند وروزميلي تمشيان في المقدمة يتبعهما الرجال الثلاثة مصعدين في شارع باريس، وكانتا تقفان أحياناً أمام محلات الأزياء أو دكاكين الصياغ، لتتأملا قبعة أو خاتماً، ثم تستأنفان السير بعد أن تتبادلا الرأي.

وفي ساحة (دو لابورس) تأمل السيد رولاند كما يفعل كل يوم حوض (باسان دي كوميرس) المملوء بالسفن، وشاهد بعده أحواضاً أخرى فيها سفن يلتصق بعض بطونها ببعض، تقف على أربعة صفوف أو خمسة. وكانت الصواري التي لا تحص فوق سطح عدد من الكيلومترات وهي بعوارضها وركائزها وحبالها تعطي لهذا الامتداد في وسط المدينة منظراً لغابة كبيرة ميتة. وعلى هذه الغابة العارية جعلت طيور النورس تحوم، تمعن النظر لتنقض كالحجارة الساقطة على كل قطعة طعام تطرح إلى الماء. وكان في طرف أحد الصواري ولد يربط بكرة، فبدا وكأنه صعد إلى هناك ليبحث عن أعشاش الطيور.

وسألت السيدة رولاند السيدة روزميلي:

ـــ هل ترغبين أن تتعشي معنا عشاء دون رسميات فننهي يومنا معاً؟

ــ نعم، بكل سرور، وأقبل إن كان بدون رسميات، وسأكون مكتئبة لو أمضيت المساء وحيدة.

فتمتم بيير وقد كان يسمع، وجعّد وجهه لقلة مبالاة المرأة الشابة:

«هذه الأرملة، لا تريد أن تفارقنا». منذ أيام سماها «الأرملـة». وما كانت هذه الكلمة وحدها لتزعج جان إلا بنغمتها التي بدت له قبيحة جارحة.

ولم يتلفظ الرجال الثلاثة بكلمة حتى باب المنزل. وكان منزلاً ضيقاً من طابقين صغيرين في شارع (النوماندية الجميلة). وجاءت الخادمة جوزفين ففتحت الباب، فتاة في التاسعة عشرة، ريفية، رخيصة الأجرة، يدل شكلها على حماقة مفرطة. أغلقت الباب، صعدت خلف سادتها حتى الصالة في الطابق الأول ثم قالت:

ــ جاء.. ر.. رجل.. ثلاث مرات.

وصاح الأب رولاند الذي لم يكن يكلمها بدون زعيق ولا شتائم:

ــ من الذي جاء.. ألف لعنة..

فلم تتأثر البتة بنبرة صوته العالية وأجابت.

ــ رجل جاء من عند كاتب العدل.

ــ من كاتب العدل هذا؟

ـــ من عند السيد كانو ..

ـــ وماذا قال هذا الرجل؟

ـــ قال: إن السـ.. سيد كانو سيأتي هذا المساء بنفسه.

كان السيد لوكانو كاتباً بالعدل، وهو في الوقت ذاته يكنّ شيئاً من الصداقة للأب رولاند ويعنى بشؤونه. وعندما يعلن عن زيارته هذا المساء فإن ذلك يعني أمراً عاجلاً ومهمّاً، ولهذا نظر أفراد أسرة رولاند بعضهم إلى بعض منزعجين للنبأ، كما ينزعج أصحاب الثروة المتواضعة كلما تدخل الكاتب بالعدل الذي يثير مجموعة من مسائل مرغوبة أو مقلقة، تتعلق بالعقود والمواريث والدعاوى.

وتمتم الأب بعد قليل من لحظات صمت:

ـــ ماذا يعني هذا؟

فجعلت السيدة روزميلي تضحك وقالت:

ـــ هيا، إنه إرث، أنا متأكدة من ذاك، إنني أبشركم.

ولكنهم لم يكونوا ينتظرون موت أحد يورثهم مالاً. وشرعت السيدة رولاند حالاً بذاكرتها القوية في معرفة ذوي القربى تبحث عن علاقات القرابة من جانب زوجها وجانبها، مصعدة في سلسلة الآباء، متبعة فروع العمومة والخؤولة. فسألت دون أن تنزع قبعتها:

ــ قل لي أيها الأب (وكانت تدعو زوجها في البيت بالأب ، وتدعوه بعض الأحيان أمام الغرباء بالسيد رولاند) قل إذن أيها الأب ، هل تذكر من المرأة التي تزوجها جوزيف لوبرو زواجه الثاني؟

ــ نعم، بنت صغيرة من أسرة دومينيل، بنت صاحب مكتبة.

ــ هل ولدت له ولداً؟

أظن أن له أربعة أولاد أو خمسة على الأقل.

ــ لا ، إذن فلا أمل هناك.

ومن قبل أمّلت نفسها وهي تبحث ، تعلقت بأمل واهن إلى حد ما ، أمل هبط من السماء. ولكن بيير الذي يحب أمه كثيراً ويعرف فيها أحلامها البسيطة ويخشى عليها من خيبة الأمل ومن القلق والحزن فيما لو كان النبأ مزعجاً ، أوقفها قائلاً:

ــ لاتتسرعي يا أمي، ليس لنا عم في أمريكا! أما أنا فأعتقد أنه زواج لجان.

فدهش الجميع لهذه الخاطرة. وقال جان وقد تضايق قليلاً لأنّ أخاه تكلم في مثل هذا الأمر أمام السيدة روزميلي:

ــ ولماذا لي، وليس لك؟ إنّ هذا الافتراض مردود ، فأنت الأكبر ، ولذا فالناس يفكرون بك أولاً ، ثم إنني لا أريد الزواج.

فضحك بيير هازئاً وقال:

ــ إذن، فأنت عاشق؟

فأجاب الآخر مستاءً:

ــ أمن الضروري أن أكون عاشقاً لأقول إنني لا أريد الزواج بعد؟

ــ حسناً! فكلمة «بعد» تصحح كل شيء. فأنت في الانتظار.

ــ لا يهم، أنا في الانتظار إن شئت.

ووجد الأب رولاند في إصغائه وتفكيره الحل القريب فجأة، وقال:

ــ الله! إننا لحمقى حقاً إذ نجهد أذهاننا. فحضرة السيد لوكانو صديقنا، وهو يعرف أن بيير يبحث عن عيادة، وأن جان يبحث عن مكتب محاماة، فحصل على ما يريد أحدهما.

كان هذا الكلام بسيطاً ومحتملاً إلى حد كبير حتى إن الجميع وافقوا عليه.

وقالت الخادمة: «الطعام جاهز» فدخل كل واحد إلى غرفته ليجهز نفسه ويغسل يديه قبل أن يأخذ مكانه من المائدة. وكانوا بعد عشر دقائق يتعشون في غرفة الطعام الصغيرة في الطابق الأرضي. لم يتكلموا إلا قليلاً في البدء. ثم أبدى الأب رولاند بعد لحظات ومن جديد دهشته لزيارة الكاتب بالعدل! فقال:

ولكن! لماذا لم يكتب شيئاً؟ لماذا أرسل كاتبه ثلاث مرات؟ لماذا لم يأتِ هو بنفسه؟

ورأى بيير الأمر طبيعياً فقال:

إنه يحتاج بلا شك إلى جواب عاجل، وربما يريد اطلاعنا على قضايا سرية لا تستحب كتابتها.

وظل الأربعة مشغولي البال، يخالطهم قلق يسير لدعوتهم هذه المرأة الغريبة التي تعيقهم عن النقاش واتخاذ القرارات. وكانوا قد صعدوا إلى الصالة عندما قدم الكاتب بالعدل. وصاح رولاند مرحباً بالسيد لوكانو:

ــ طاب يومك يا صاحب المقام العزيز.

وقامت السيدة روزميلي تقول:

ــ أما أنا فسأذهب، إنني متعبة جداً.

وحاولوا استبقاءها بلا حماس، فلم توافق، ومضت دون أن يشيعها أحد من الرجال الثلاثة كما كانوا يفعلون عادة. وانشغلت السيدة رولاند بالقادم الجديد وقالت له:

ــ فنجاناً من القهوة يا سيدي؟

ــ لا، شكراً، إنني قد تعشيت منذ حين.

ـــ فنجاناً من الشاي إذن؟

ـــ لا أقول: لا، ولكن بعد قليل، فنحن سنتكلم أولاً عن

وأعقب هذه الكلمات صمت عميق لم تسمع فيه إلا حرَ
من رقاص الساعة، وإلا ضجة الأواني التي تغسلها في الطا
الخادمة الحمقاء، ضجة صاخبة لا يسمع معها من يصغي إلى ا
وراء الأبواب.

واستأنف الكاتب بالعدل يقول:

هل تعرفون في باريس شخصاً يدعى السيد ماريش
ماريشال؟

فصاح السيد والسيدة رولاند معاً:

ـــ نعم!

ـــ أهو أحد أصدقائكم؟

فصرح رولاند يقول:

ـــ إنه أفضل الأصدقاء يا سيدي، ولكنه باريسي متعصب
لا يغادرها، وهو مدير دائرة في وزارة المالية، لم أره منذ غادرت الع
لم نزل نتبادل الرسائل. وكما تعلم، فعندما يعيش الواحد بعيداً عن

واستأنف الكاتب بالعدل كلامه جاداً، وقال:

ـــ لقد توفي السيد ماريشال.

فاضطرب الرجل والمرأة معاً اضطراباً خفيفاً من الدهشة الحزينة المتصنعة أو الحقيقية، الدهشة السريعة التي يعتادها المرء عندما يستقبل نبأً كهذا. وتابع السيد لوكانو يقول:

ـــ ولقد أخبرني زميلي في باريس عن الجانب الأساسي في وصيته التي يعيّن فيها ابنكم جان، السيد جان رولاند وريثه الوحيد.

كانت الدهشة كبيرة لدرجة أسكتت الجميع، فلم ينطق أحد بكلمة. وكانت السيدة رولاند أول من سيطرت على عواطفها، وتلعثمت تقول:

ـــ يا إلهي، ليون المسكين.. صديقنا المسكين، يا إلهي، يا إلهي.. مات!

وظهرت الدموع في عينيها، دموع النساء الصامتة، نقاط من الكآبة نبعت من روحها وسالت على خديها، وبدت مؤلمة وواضحة في الوقت نفسه. أما رولاند فشرع يفكر، كان حزنه للفاجعة أقل من أمله المتعلق بالخبر. ولم يجرؤ مع ذلك أن يسأل حالاً عن تفاصيل الوصية، ولا عن مقدار الثروة، ولكنه من أجل أن يصل إلى الجواب الممتع سأل:

ـــ ما سبب موت ماريشال المسكين؟

وكان السيد لوكانو يجهل ذلك جهلاً تاماً، فقال:

ـــ لاأعرف سوى أنه مات دون وريث مباشر، وترك ثروته كلها، وتبلغ إيراداتها ٢٠ ألف فرنك تقريباً من أسهم فائدتها ٣٪، تركها لابنكم الثاني الذي شهد ماريشال ولادته ونشأته، ورأى أنه يستحق هذا الارث. وأوصى في حال رفضه القبول بها، أن يحول المبلغ إلى دار اللقطاء. ولم يستطع الأب رولاند حتى هذه اللحظة إخفاء بهجته فصاح:

ـــ لعمري! هذه الفكرة من قلب طيب. أما أنا، فلو لم يكن لي ورثة لما غاب عني أن أفعل مثلما فعل هذا الصديق الوفي.

وتبسم الكاتب بالعدل يقول:

ـــ يسعدني أن أعلمكم الخبر بنفسي، وإنه لمما يسر المرء أن يحمل إلى الآخرين أخباراً طيبة.

ولم يكن أحد يظن أن هذا الخبر الطيب هو وفاة صديق، خير صديق للأب رولاند، وقد نسي هو نفسه فجأة تلك الصداقة الحميمة، التي صرح بها منذ حين عن يقين راسخ.

واحتفظت السيدة رولاند وولداها بهيئة الحزن، فاستمرت في بكائها

قليلاً، ماسحة عينيها بمنديلها الذي أسندته بعدئذ على فمها، تمنع تنهدات عميقة.

وتمتم الطبيب يقول:

ـــ كان رجلاً طيباً، كثير المودة، كان غالباً ما يدعونا للعشاء أنا وأخي. وكانت عينا جان مفتوحتين جداً تلتمعان، وأمسك بيده اليمنى، وبحركة مألوفة لحيته الجميلة الشقراء، ومررها عليها حتى نهايتها، كما لو أنه يريد أن يمدها وينعمها. وحرك كذلك شفتيه مرتين ليلفظ جملة تناسب الحال، ولم يجد بعد بحث طويل سوى أن يقول:

ـــ كان في الحقيقة يحبني، كان يقبلني كلما جئت لزيارته.

ولكن أفكار الأب كانت تجري، تجري حول الميراث المعلن عنه كما لو استحق دفعه الآن، حول المال المخبأ وراء الباب، والذي سيدحل بعد حين، غداً، وبعد كلمة الموافقة. وسأل يقول:

ـــ هل من صعوبة محتملة؟.. هل من دعـــوى؟.. هل من منازعات؟..

وبدا السيد لوكانو هادئاً عندما قال:

ـــ لا، أخبرني زميلي الباريسي أن القضية واضحة، ولا ينقص إلا قبول السيد جان.

ـــ عظيم إذن، وأما الثروة فواضحة أيضاً.

ـــ واضحة جداً.

ـــ هل المعاملات كلها منتهية؟

ـــ نعم، كلها.

وفجأة أحس الجوهري القديم بسبب عجلته في الاستخبار، أحس بشيء من الحشمة، حشمة غائمة، عريزية، عابرة، فقال من جديد:

ـــ تعرف، إنني إذا كنت أسألك الآن عن كل هذه الأشياء، فلكي أحنب ابني مضايقات لا يتوقعها. فهناك بعض الأحيان ديون في وضع غامض، فكيف يمكنني أن أعرف ذلك، أنا؟ وربما يدس أحد ما في الخفاء فلا يخرج. وعلى كل حال، فلست أنا الوريث. ولكنني أفكر بالصغير قبل كل شيء.

كان جان يلقب في الأسرة دائماً بـ «الصغير» رغم أنه كان أطول من بيير بكثير.

وفجأة بدأت السيدة رولاند تخرج من حلم وتذكر شيئاً بعيداً منسياً إلى درجة ما، كانت تسمعه فيما مضى، وليست متأكدة منه مع هذا، فتمتمت تقول:

ـــ ألم تقل يا حضرة الكاتب بالعدل إن صديقنا ماريشال رحمه الله ترك ثروته لصغيري جان؟

ـــ نعم يا سيدتي.

فتابعت تقول ببساطة.

ـــ هذا ما يسرني جداً، لأنه دليل على حبه.

ووقف رولاند وقال:

ـــ هل تريد يا صاحب المقام العزيز أن يوقع ابني على القبول الآن؟

ـــ لا، لا ... يا سيد رولاند. غداً، غداً في مكتبي، الساعة الثانية إن كان يناسبكم.

ـــ طبعاً، طبعاً، يناسبنا!

وعندئذ قامت السيدة رولاند، وتبسمت بعد الدموع، وتقدمت خطوتين نحو الكاتب بالعدل، ووضعت يدها على ظهر أريكته وغمرته بنظرة عطف الأم الشاكرة وسألت:

ـــ وفنجان الشاي يا سيد لوكانو؟

ـــ والآن، فبكل سرور يا سيدتي.

ودعيت الخادمة فحملت أولاً حلويات جافة في علب عميقة من

الصفيح، حلويات انكليزية، لا ذوق فيها، قاسية تتفتت، بدت كأنها مصنوعة لمنقار الببغاء، مختومة في صندوق من المعدن، يصلح لحملها في رحلات حول العالم. ثم ذهبت لتحضر مناديل رمادية مطوية على شكل مربعات صغيرة، مناديل شاي لم تكن أسر الطبقة العاملة تغسلها أبداً. ثم رجعت للمرة الثالثة تحمل السكرية والفناجين، وذهبت بعدها لتغلي الماء. وإذن فيجب الانتظار.

ولم يكن أحد من الحاضرين يتكلم، لأنهم كانوا كلهم يفكرون.. ولا مادة لديهم للكلام، ما عدا السيدة رولاند إذ كانت تبحث عن جمل مبتذلة، فتكلمت عن نزهة الصيد وأثنت على مركب اللؤلؤة وعلى السيدة روزميلي. فردد الكاتب بالعدل: «لطيفة.. لطيفة».

وكان رولاند يسند صلبه إلى رخام المرفأة كما يفعل في الشتاء عند اشتعال النار، يضع يديه في جيوبه، وشفتاه تضطربان كأنهما تتحركان للتصفير. لم يستطع أن يبقى في مكانه، كانت تعذبه رغبات ملحة في أن يطلق عنان فرحه كله. وكان الأخوان على أريكتين متماثلتين، يريحان رجلاً فوق أخرى بالطريقة نفسها، على يمين الطاولة التي تتوسط الغرفة وعلى يسارها، ينظران نظرة ثابتةً أمامهما في أوضاع متشابهة مملوءة بتعابير مختلفة.

وأخيراً جاء الشاي فتناول الكاتب بالعدل فنجانه، ووضع فيه

السكر وشربه بعد أن فتت فيه بسكويتةً قاسية جداً لا يمكن قضمها، ثم نهض وشدّ على الأيدي وخرج. وكرر رولاند القول:

ــ مع الموافقة! غداً، عندكم في الساعة الثانية. مع الموافقة، غداً في الساعة الثانية.

في حين لم يقل جان كلمة واحدة.

وخيم الصمت بعد خروج الكاتب بالعدل، ثم تقدم الأب رولاند ليضرب بيديه المفتوحتين على كتفي ابنه جان صائحاً:

ــ حسناً، أيها المحظوظ العظيم، ألا تريد أن تعانقني؟

وبدت عندئذ على جان ابتسامة، وعانق أباه قائلاً:

ــ لم يكن يبدو لي هذا ضرورياً.

ولم يستطع الرجل السيطرة على فرحه فمضى يدق على خشب الأثاث بأظافره الخرقاء وكأنه يعزف على البيانو. واستدار معتمداً على عقبيه وكان يردد:

ــ يا للحظ! يا للحظ! هو ذا الحظ.

وسأل بيير:

ــ وإذن، فكنتم تعرفون جيداً ماريشال هذا؟

فأجاب الأب:

ـــ أجل، كان يسهر عندنا كل مساء، ولعلك تذكر أنه كان يذهب إلى المدرسة ليأتي بك أيام العطل، ويصطحبك إليها غالباً بعد العشاء. آ، بالضبط، صبيحة الولادة، هو الذي ذهب ليحضر الطبيب، كان يتغدى عندنا حينما شعرت أمك بالألم. وفهمنا حالاً ماذا يعني ذلك، وخرج بسرعة ولعجلته أخذ قبعتي بدلاً من قبعته. أذكر هذا، لأننا ضحكنا كثيراً فيما بعد. ويحتمل أنه تذكر هذه التفاصيل لحظة الموت فقال في نفسه ولا وارث له: «حسناً، سأترك ثروتي لهذا الصغير الذي شاركت في ولادته».

وبدا على السيدة رولاند وقد غاصت في أريكتها، أنها ابتعدت في ذكرياتها فتمتمت، كما لو كانت تفكر وهي تتكلم:

ـــ آه، لقد كان صديقاً طيباً، خدوماً جداً، إنه رجل نادر في هذا الزمن.

ونهض جان قائلاً:

ـــ سأتنزه قليلاً.

ودهش أبوه، وحاول أن يمسكه، لأنه يود البحث معه في المشاريع، واتخاذ القرارات. ولكن الفتى ظل مصراً على الخروج متعللاً بموعد لديه. وعلى كل، فالوقت طويل قبل الموافقة، طويل جداً قبل الحصول على

الميراث. وقد خرج لأنه كان يرغب الخلوة بنفسه ليفكر. وصرح بيير بدوره عن رغبته في الذهاب، وتبع أخاه بعد دقائق.

ومنذ خلا الأب رولاند بزوجته ضمها بذراعيه، وقبلها عشر قبلات على كل خد. وقال ليجيب على لومها الذي كانت تفاتحه به غالباً.

ــ كما ترين يا عزيزتي، لم يكن البقاء في باريس لمدة أطول مفيداً للأولاد ولا مفيداً لي، إنه يتعب صحتي، في حين يناسب صحتي المجيء إلى هنا، والثروة نزلت علينا من السماء.

فقالت وقد اتخذت هيئة جادة:

ــ تنزل من السماء لجان، ولكن بيير؟

ــ بيير! إنه طبيب، سيربح أموالاً.. ثم إنّ أخاه سيعينه.

ــ لا. لن يرضى. ومع ذلك فهذا الميراث لجان، لجان وحسب، لا لبيير.

وبدا الرجل حائراً، وقال:

ــ وإذن، فسوف نترك له مالاً أكثر قليلاً في وصيتنا.

ــ لا، وهذا ليس عدلاً.

فصاح الرجل قائلاً:

ـــ آه، في هذه الحال.. زفت! ماذا تريدين أن أفعل أنا؟ وأنت دائماً تبحثين عن أفكار تزعج كثيراً، يجب أن تفسدي مسراتي كلها. والآن يجب أن أنام، طاب مساؤك، وعلى كل فهذا حظ، حظ عظيم.

ومضى جذلان رغم كل شيء، وبلا كلمة أسف واحدة للصديق الذي مات كريماً للغاية.

وبدت السيدة رولاند تفكر من جديد، وكانت قريبة من المصباح الذي أخذ يطلق دخاناً أسود.

٢

منذ أن خرج بيير توجه إلى شارع باريس، الشارع الرئيسي في ميناء الهافر، الشارع المضيء الذي يعج بالحياة والضجيج. كان الهواء على شاطئ البحر منعشاً يلامس وجهه، وكان يمشي الهوينى، عصاه تحت ذراعه، ويداه وراء ظهره.

شعر بضيق وارهاق وانزعاج، كما يشعر من يتلقى نبأ مؤسفاً. ما من فكرة محددة ترهقه، ولم يستطع ابتداء أن يقول من أين أتته هذه الوساوس الثقيلة وهذا الحذر. إنه يتألم من ناحية معينة دون أن يعلم أين هي؛ كان يحمل في نفسه نقطة صغيرة مؤلمة، هي جرح من تلك الجروح التي لا يشعر بها أحدنا بوضوح ولا يجد مكانها، ولكنه جرح يضايق، يتعب، يحزن، يثير. وأحس بألم غير معروف، ألم خفيف كحبة من الكآبة.

وعندما وصل إلى ساحة المسرح، أحس أنه مجذوب إلى أنوار مقهى «تورتوني» وتقدم ببطء نحو الواجهة المضيئة، ولكنه في اللحظة التي دخل

فيها ، فكر أنه سيجد فيه أصدقاء ومعارف وناساً لا بد أن يتكلم معهم وهو لا يريد فاجتاحته فحأة موجة اشمئزاز من ضجة رواد المقاهي المبتذلة التي يجلبها فنجان القهوة وكأس الشراب .

وعندها عاد بخطواته ، ورجع ليأخذ الشارع الرئيسي الذي يقود إلى الميناء، وتساءل في نفسه : « إلى أين سأذهب إذن ؟» بحث عن مكان يعجبه ويناسب حاله فلم يجد ، لأنه منزعج من الوحدة ، ولا يريد أيضاً أن يلقى أحداً .

وعندما وصل إلى الرصيف الكبير للميناء تردد كذلك مرة أخرى ، ثم استدار نحو الرصيف الجانبي ، واختار الانفراد .

وعندما لامس أحد المقاعد على صحور كاسر الأمواج جلس وقد تعب من المشي ، واشمأز من النزهة حتى قبل أن يقوم بها . وتساءل : « ما الذي حصل لي هذه العشية ؟» وكما يسأل أحدنا مريضاً ليعرف سبب ارتفاع حرارته شرع يبحث عن بعض التناقضات التي استطاع أن يتوصل إليها .

كان ذهنه بين طبيعتين مضطرباً ورزيناً وفي وقت معاً ، كان يتهيّج ثم يتعقل ، يؤيد اندفاعاته أو يستنكرها ، ولكن الطبيعة الأولى تظل عنده آخر الأمر أشد ، ويبقى جانب الإحساس لديه مسيطراً على جانب الذكاء ..

وإذن فقد كان يبحث من أين جاءه توتر الأعصاب هذا ، هذه الحاجة إلى الحركة دون أن تكون عنده رغبة إلى شيء ، هذا الميل للالتقاء

بأحد الأشخاص الذين ليسوا على رأيه، وهذا الاشمئزاز من الناس الذين يستطيع أن يراهم، ومن الأشياء التي يستطيعون أن يقولوها له.

وطرح هذا السؤال: «أيكون ذلك لإرث جان؟» أجل هذا ممكن بعد كل شيء. فعندما أعلن الكاتب بالعدل ذاك الخبر، شعر بقلبه تسرع ضرباته قليلاً، والمرء بالطبع لا يسيطر على نفسه دائماً، إنه ليعاني من عواطف لا إرادية مستمرة ضد الآخرين الذين يكافحون دون طائل.

وأخذ يفكر تفكيراً عميقاً بهذه المشكلة الفيزيولوجية للانطباع الذي يتولد من الحدث، فيؤثر على الكائن الغريزي، ويحدث فيه تياراً من الأفكار والإحساسات المؤلمة، أو المفرحة، مخالفاً للأفكار التي يريدها، والتي يدعوها، والتي يراها طيبة سليمة، هذا الكائن المفكر غدا مرتفعاً عن نفسه باستخدام عقله. تصور الحالة النفسية لابن ورث ثروة كبيرة، يستطيع أن ينال بفضلها كثيراً من المباهج التي كان يرغب فيها منذ أمد طويل، مباهج محبوبة يمنعه منها أب بخيل.

نهض وأخذ يمشي ثانية إلى طرف الرصيف. وشعر بتحسن وسرور، لأنه فهم نفسه، ودهش منها، واكتشف فيها الشخص الآخر الذي يسكنها والذي نكتشفه عادة في أنفسنا.

وفكر: «وإذن، فقد كنت أحسد جان، إن هذا في الحقيقة لأمر دنيء! تأكدت من ذلك الآن، الفكرة الأولى التي خطرت لي هي زواجه من السيدة روزميلي. وأنا من جهة أخرى لا أحب هذه الصغيرة الحمقاء

المتعقلة التي خلقت ليشمئز منها الفكر السليم وذوو الحكمة. وإذن فهذا حسد لا مبرر له، إنه جوهر الحسد نفسه، الحسد للحسد! لا بد أن أعالج ذلك».

وكان وصل إلى الركيزة ذات العلامات المستعملة لقياس ارتفاع الماء في الميناء، فأشعل عود ثقاب لقراءة قائمة السفن التي ستدخل المرفأ مع المد القادم. كانت سفن بخارية تنتظر، قادمة من البرازيل والأرجنتين وشيلي واليابان، وسفينتان من الدنمرك، وسفينة شراعية من النرويج، وسفينة بخارية تركية أدهشت بيير كما لو أنه قرأ: «سفينة بخارية من سويسرا» ولمح في لون من الحلم الغريب سفينة كبيرة مغطاة برجال ذوي عمائم كانوا يصعدون على الحبال بسراويل عريضة. قال في نفسه: «يا لحماقتي، إنّ الأتراك من الشعوب البحرية».

وبعد أن خطا عدة خطوات وقف ليتأمل الميناء. على اليمين فوقه قرية (سانت أدرس) منارتان كهربائيتان في رأس (دو لاهيف) تشبهان توأمين ممسوخين لرجال السيكلوب يلقيان على البحر نظرات طويلة شديدة، وكان يخرج من موقد المنارتين شعاعان ضخمان متوازيان لمذنبين يهبطان على منحدر مستقيم بلا حدود، من قمة الشاطئ إلى عمق الأفق. ثم على رصيفي الميناء الجانبيين ضوءان آخران من أولاد هذين العملاقين يشيران إلى مدخل مرفأ الهافر. وهناك ومن الجانب الآخر لنهر السين كانت ترى أضواء أخرى أيضاً، أخرى كثيرة ثابتة الإضاءة أو مترددة، يستمر

ضوءها، أو ينطفئ ويشتعل، تنفتح وتنغلق كالعيون، عيون المرافئ الصفراء والحمراء والخضراء التي تراقب البحر المظلم المغطى بالسفن، العيون اليقظة للبر المضياف الذي يقول بحركة الحفون الميكانيكية المستمرة التي لا تتغير: «أنا هنا، أنا ميناء تروڤيل، أنا ميناء أونفلور، أنا نهر قرية بونت أودمير» ومن بعيد سيطرت على كل الأضواء منارة عالية جداً، حتى ليظنها الناس كوكباً، منارة قرية (ايتوڤيل) ترتفع في السماء، تشير إلى طريق مدينة روان، خلال أكوام الرمل في مصب النهر الكبير. ثم على الماء العميق، على الماء غير المحدود، الماء الأشد ظلمة من السماء، كان يعتقد الناظر أنه يرى هنا وهناك نجوماً، نجوماً تلتمع في ضباب الليل صغيرة قريبة أو بعيدة، بيضاء وخضراء وحمراء أيضاً، كانت ساكنة كلها تقريباً، ومع دلك فكان بعضها يبدو وكأنه يجري، إنها أضواء السفن ألقت مراسيها منتظرة المد القادم، أو مبحرة تبحث عن مكان لترسو فيه.

في هذا الوقت بالذات أشرق القمر خلف المدينة، كان كمنارة ضخمة جليلة منيرة في أديم السماء ترشد أساطيل النجوم الحقيقية التي لا تنتهي.

وتمتم بيير بصوت عالٍ تقريباً: «هو ذاك، فنحن الذين نصنع القلق لأتفه الأسباب».

وفجأة انزلق بالقرب القريب منه في الحوض العميق العريض الأسود بين رصيفي الميناء، انزلق ظلام واسع غريب، فمال على حاجز الغرانيت،

فرأى سفينة صيد كانت راجعة، لم تحدث ضجة من صوت إنسان أو ضجة من صوت موج أو صوت مجداف، كان تتهادى ببطء بشراعها العالي البني الممدود لنسيم البحر. وفكر: «ما أهدأ الحياة، لو يستطاع العيش هنا!» ثم خطا عدة خطوات فلمح رجلاً جالساً على نهاية الرصيف. رجلاً حالماً عاشقاً حكيماً، سعيداً أو شقياً؟ من عساه يكون هذا؟ واقترب بفضول ليرى وجه الرجل المنعزل فعرف فيه أخاه:

ـــ آ.. هذا أنت، يا جان؟

ـــ آ.. بيير.. ماذا جئت تفعل هنا؟

ـــ إنني أستروح الهواء. وأنت؟

فشرع جان يضحك قائلاً:

ـــ وأنا أستروح الهواء أيضاً.

وجلس بيير بقرب أخيه وقال:

ـــ حسناً، إن ذاك لجميل حقاً.

ـــ طبعاً.

وفهم من نغمة صوته أنّ جان لم يكن ينظر إلى شيء، فاستأنف يقول:

ـــ أنا، عندما جئت إلى هنا كانت لدي رغبات طائشة للخروج،

للذهاب مع هذه السفن كلها نحو الشمال أو نحو الجنوب، أظن أن هذه الأضواء هناك تصل من أنحاء العالم كلها، من بلاد الزهور العظيمة والفتيات الجميلات البيضاوات والبرونزيات، من بلاد عصافير الدوري، والفيلة، والأسود الطليقة، وملوك الزنج، من كل البلاد التي كانت لنا قصصاً خرافية، والتي لم نعد نصدقها، قصصاً عن القطة البيضاء والأميرة النائمة. سيكون ظريفاً حقاً أن نقوم بنزهة هناك، ولكن يلزم كثير من النقود.

وسكت فجأة وهو يفكر، إن أخاه يمتلك الآن هذه النقود، وإنه متحرر من كل همّ متحرر من الأعمال اليومية، طليق بدون عقال، سعيد مبتهج، يستطيع أن يذهب إلى أي مكان يريد، نحو شقراوات السويد أو سمراوات هافانا.

ثم اجتاحته بشكل مفاجئ وسريع فكرة من أفكاره غير الإرادية هذه والمألوفة لديه، حتى إنه لم يكن ليستطيع أن يتنبأ بها ولا أن يقفها ولا أن يعدلها، بدا له أنها آتية من روح ثانية مستقلة وعنيفة: «أف! إنه أحمق جداً، سيتزوج روزميلي الصغيرة». وقام وهو يقول:

سأتركك لتحلم في المستقبل، وأما أنا فأحتاج إلى المشي.

وشد على يد أخيه، وتابع يقول بلهجة ودية:

ـــ حسناً يا عزيزي جان، ها أنتذا غني! أنا مسرور جداً لأنني

التقيت بك وحيداً هذه العشية لأقول لك: كم جعلني ذاك سعيداً. إنني أهنئك من كل قلبي، وأحبك.

وتأثر جان ذو الطبيعة الناعمة، تأثر جداً، وتلعثم وهو يقول:

ـــ شكراً.. شكراً ياأخي الطيب بيير، شكراً.

واستدار بيير راجعاً في خطواته البطيئة، عصاه تحت إبطه، ويداه خلف ظهره.

وعندما دخل المدينة تساءل من جديد عما سيفعل، إنه مستاء من هذه النزهة المقتضبة، مستاء من حرمانه البحر بوجود أخيه. وخطرت له فكرة: «سأشرب كأس نبيذ عند الأب ماروفسكو». وعندها مضى مصعداً باتجاه حي أنجوفيل.

كان الأب ماروفسكو معروفاً في مشافي باريس، عجوز بولوني، لاجئ سياسي كما كان يقال، كانت له قصص فظيعة هناك، وجاء يمارس في فرنسا بعد فحوص جديدة مهنته في الصيدلة، ولم يكن أحد يعلم شيئاً عن حياته الماضية، ولذا انتشرت عنه قصص بين الأطباء، والأطباء المقيمين وبين جيرانه فيما بعد، واستحوذت شهرة هذا الثائر على الدولة، عضو مذهب الهيلينية (العدميّة)، قاتل الملك، الوطني المستعد لعمل كل شيء، الذي نجا من الموت بمعجزة، استحوذت على خيال المغامرة الجريئة عند بيير رولاند، فصار صديق العجوز البولوني دون أن يحصل منه مع ذلك على أي

بيان عن ماضيه. وبفضل الطبيب الشاب جاء الصيدلي ليقيم في ميناء الهافر.. راجياً أن يكون لديه زبائن كثيرون يرسلهم إليه هذا الطبيب الناشئ ، وفي انتظار ذاك ، كان يحيا حياة فقر في صيدليته المتواضعة ، يبيع الأدوية في حيّة لصغار البورجوازيين والعمال.

وكان بيير غالباً ما يذهب ليراه بعد العشاء ، ويتحدث معه ساعة ، لأنه كان يحب طلعة ماروفسكو الهادئة وحديثه القليل وصمته الطويل الذي يراه عميقاً.

قنديل واحد من الغاز كان يشتعل فوق الفترينة المملوءة بالقوارير ، لم تكن الأضواء مسلطة على القوارير كلها بسبب التوفير. وخلف الفترينة جلس الرجل على كرسيه ، وقدماه ممدودتان ، إحداهما على الأخرى. كان عجوزاً أصلع ، أنفه كبير كمنقار الطير ، ينحدر من جبهته الجرداء ، فيكتسب هيئة ببغاء حزينة ، وكان ينام بعمق ، فتتدلى ذقنه على صدره. استيقظ على رنين الجرس ، فقام. عرف الطبيب ، فتقدم منه ويداه ممدودتان.

كان معطفه الأسود المنقط ببقع الحموض والسوائل واسعاً جداً على جسده النحيل الصغير. فبدا كأنه ثوب كاهن قديم ، وكان الرجل يتكلم بلهجة بولونية تعطي صوته النحيل شيئاً من طفوليّة ، فتظهر منه زأزأة ونغمة من كائن صغير يبدأ بالكلام.

جلس بيير ، وسأله ماروفسكو :

ــ ما الجديد، يا عزيزي الطبيب؟

ــ لا شيء، دائماً الأمر نفسه في كل مكان.

ــ لا يدل مظهرك على المرح اليوم.

ــ أنا لست مرحاً على الغالب.

ــ هيا، هيا، خلّ عنك. أتريد كأس نبيذ؟

ــ نعم، بكل سرور.

ــ إذن، سأذيقك تركيبة جديدة. منذ شهرين وأنا أبحث لأكتشف بعض الأشياء من الكشمش [عنب الديب] الذي لم يُصنع منه حتى الآن إلا الشراب.. اكتشفت.. اكتشفت.. نبيذاً طيباً، طيباً جداً، طيباً جداً.

ومضى مبتهجاً إلى خزانة ففتحها، واختار زجاجة حملها. كان يقوم بحركات قصيرة ليست تامة، لم يكن يمدّ ذراعه مداً كاملاً، لم يكن يفتح ساقيه فتحاً تاماً، ولا يقوم بحركات كاملة حاسمة. وكانت أفكاره تبدو مثل أفعاله. يشير إليها، يَعِدُ بها، يحاولها، يقترحها، ولكنه لا يسنها. وكان الشاغل الأكبر في حياته تحضير الأشربة أو الأنبذة، وكان غالباً ما يقول: «تصنع الثروة بالشراب الطيب أو النبيذ الفاخر». استحدث مئات

التركيبات الحلوة دون أن يصل إلى النجاح مرة واحدة. وكان بيير يؤكد أن ماروفسكو يذكره بشخصية (مارا)[1].

وتناول الرجلان كأسين صغيرتين في مؤخرة الصيدلية، وحملاهما إلى طاولة تحضير الأدوية، ثم تفحصا لون السائل على مصباح الغاز. قال بيير:

ـــ يا له من عقيق رائع.

ـــ أليس كذلك؟

وبدا رأس العجوز البولوني المشابه للببغاء مسروراً. تذوق الطبيب، وتلمظ، تفكّر، تذوق من جديد، تفكر من جديد، ثم صرح يقول:

ـــ لذيذ جداً، لذيذ جداً، وجديد جداً للأذواق، إنه اكتشاف يا عزيزي.

ـــ آه، في الحقيقة أنا مسرور جداً.

وعندئذ استشار ماروفسكو الطبيب فيما يسمى هذا النبيذ الجديد، كان يريد أن يسميه: (روح الكشمش) أو (الكشمش الصافي) أو (الكشمش) أو (الكشمشين) فلم يوافق بيير على أية تسمية من هذه التسميات، وخطرت للعجوز فكرة فقال:

---

(١) مارا: ثوري فرسي، طبيب، اشتهر بعمه وقتل غيلة سنة ١٧٩٣ وهو يستحم.

ـــ ما قلت قبل لحظات مناسب جداً، مناسب جداً (العقيق الرائع). فأنكر بيير هذه التسمية أيضاً رغم أنه قالها. ونصح ببساطة أن يسميه (الكشيمش) فصرّح ماروفسكو أنه رائع. ثم سكت الاثنان، وبقيا جالسين دقائق تحت قنديل الغاز الوحيد لا يبسان بكلمة. وأخيراً قال بيير رغماً عنه:

ـــ آ، حدث لنا شيء غريب جداً هذا المساء، إنّ صديقاً من أصدقاء والدي ترك ثروته لأخي بعد وفاته.

وبدا على الصيدلي أنه لم يفهم مباشرة، ولكنه رجا بعد التفكير أن يكون الطبيب قد ورث النصف. وعند الشرح ظهرت عليه الدهشة والانزعاج. وردد للتعبير عن استيائه من رؤية صديقه الشاب ضحية:

ـــ لن يظهر ذلك ظهوراً طيباً.

وأراد بيير الذي عاد إليه توتر أعصابه أن يعرف ماذا يعني ماروفسكو بهذه الجملة فقال:

ـــ لماذا لن يظهر ذلك ظهوراً طيباً؟ ما النتيجة السيئة التي يمكن أن تكون من جراء وراثة أخي لثروة صديق من أصدقاء الأسرة؟

ولكن الرجل الحذر لم يشرح أكثر من ذلك. وقال:

ـــ في هذه الحال يترك للأخوين بالتساوي، وأقول لك إن هذا لن يظهر ظهوراً طيباً.

ومضى الطبيب وقد نفد صبره، فعاد إلى البيت، وأوى إلى سريره خلال وقت قصير، وسمع أخاه جان يمشي على مهله في الغرفة المجاورة، ثم نام بعد أن شرب كأسين من الماء.

٣

واستيقظ الطبيب في اليوم التالي وقد رسخ قراره على جمع الثروة . كان قد اتخذ مثل هذا القرار في عديد من المرات دون أن يتابعه في حيز التطبيق . يمضي في بداية كل محاولاته لاتخاذ مهنة جديدة يأمل فيها الغنى السريع الذي يدعم جهوده وثقته بنفسه حتى تظهر أمامه العقبة الأولى ، وحينئذ يقذف به الإخفاق في طريق جديد .

أخذ يفكر وهو غائص في سريره بين البطانيات الدافئة : كم طبيباً من الأطباء صار ذا ملايين خلال مدة يسيرة؟! أما هو فبذرّة من المعرفة العملية استطاع في أثناء دراسته أن يميّز أشهر الأساتذة ، وكان يحكم عليهم بالعباء . حقاً إن قيمته تساويهم ، وربما تزيد ، فإن استطاع بطريقة ما أن يستميل الزبائن أصحاب الأناقة والغنى من سكان الهافر ، تمكن بسهولة أن يربح مائة ألف فرنك في العام . وحسب الأرباح الثابتة بدقة ؛ سيخرج في الصباح ، سيذهب إلى مرضاه . وبإجراء المعادلة الدنيا : عشرة مرضى كل

يوم يدفع كل منهم عشرين فرنكاً، سيصل دخله على الأقل إلى ٧٢ ألف فرنك في السنة بل ٧٥ ألف فرنك، لأن رقم عشرة مرضى في التدقيق أقل من الواقع الأكيد. وسيستقبل بعد الظهر في عيادته مرضى آخرين، عشرة مرضى بعشرة فرنكات، يعني ٣٦ ألف فرنك، وهذه إذن ١٢٠ ألف فرنك، رقم مدور. والزبائن القدامى والأصدقاء الذين سيعودهم في منازلهم بعشرة فرنكات، وسيستقبلهم في عيادته بخمسة، ربما يؤثرون على جملة الحساب فيخفضونه تخفيضاً بسيطاً، سيعوضه باستشارات الأطباء الآخرين وبالمنافع الصغيرة المعتادة في المهنة.

لا شيء أسهل من الوصول إلى ذاك، ويلزمه إعلانات ذكية، أنباء في جريدة فيكارو تشير إلى أن الهيئة العلمية في باريس تتطلع باهتمام إلى العلاجات المدهشة التي يباشرها العالم الشاب المتواضع في مدينة الهافر. وسيكون أغنى من أخيه، أغنى وأشهر، وسيكون مسروراً من نفسه، لأنه لن يصل إلى الثروة إلا بنفسه، وسيغدو عظيماً في عين أبويه العجوزين الفخورين به لهذه الشهرة. لن يتزوج، لا يريد قط أن يربك وجوده بامرأة واحدة تضايقه بل ستكون لديه حبيبات بين زبوناته الرائعات الجمال.

كان يحس بالثقة الثابتة في النجاح، لدرجة أنه قفز خارج سريره كأنما يريد أن يمسك به حالاً، وارتدى ثيابه ليذهب باحثاً عن شقة في المدينة تناسبه.

وفكر هل يمشي خلال الطرقات، وقال في نفسه: ما أهون الدوافع

الحاسمة لأعمالنا، كان يستطيع منذ ثلاثة أسابيع أن يتخذ هذا القرار، كان يجب أن يتخذ هذا القرار الذي ولد في نفسه فجأة عقب ميراث أخيه بلا شك. جعل يقف أمام الأبواب التي علقت عليها بطاقات تعلن عن شقة جميلة، عن شقة فاخرة للأجرة، كانت الاعلانات الخالية من الأوصاف تملؤه بالازدراء. زار الشقق مترفعاً، قاس ارتفاع السقوف، رسم على مفكرته مخططاتها، ووضع غرفها، وحالة منافذها. وكان يخبر أصحاب الشقق أنه طبيب وأنه يستقبل مرضى كثيرين. يجب أن يكون الدرج عريضاً ونظيفاً جداً، وهو على كل حال لا يريد الارتفاع عن الطابق الأول.

وبعد أن سجّل سبعة عناوين أو ثمانية، وكتب مسودة لمائتي إعلان، رجع ليتناول الغداء متأخراً ربع ساعة عن الموْعد.

وسمع منذ أن دخل البهو ضجة الصحون، إنهم إذن يأكلون دون أن ينتظروه. لماذا؟ والأسرة عادة لا تأكل على الوقت المحدد. تجعّد وجهه، واستاء، لأنه كان سريع التأثر إلى حد ما. وما أن دخل حتى قال له رولاند:

ـــ هيا، يا بيير، أسرع، ياللعنة! فأنت تعلم أننا سنذهب في الساعة الثانية إلى الكاتب بالعدل. وليس اليوم يوم إضاعة وقت.

ولم يجب الطبيب بكلمة وجلس بعد أن قبّل أمه وشدّ على يد أبيه وأخيه، وأخذ من الصحن الكبير وسط المائدة قطعة اللحم المحفوظة له من ضلع خروف. كانت باردة وجافّة، وربما كانت أسوأ القطع. وقال لنفسه:

كان يمكن أن تترك في الفرن حتى أصل، لا أن يضيع عقل الأهل إلى درجة نسيان الابن الآخر، الابن الأكبر، نسياناً تاماً.

واستؤنفت المحادثة التي توقفت بقدومه، كانت السيدة رولاند تقول لجان:

ـــ أما أنا فلو كنت مكانك فإنني أقيم في منزل ذي أبهة، وعلى شكل يسترعي الانتباه، وأظهر في المجتمعات، أركب حصاناً، أختار قضية أو اثنتين من القضايا المثيرة لأرافع بها واكتسب شهرة في قصر العدل. أحب أن أكون من المحامين ذوي الهواية والبحث المتقصي. فأنت والحمد لله بمأمن من الحاجة ولئن اتخذت مهنة فلكي لا تخسر إجمالاً ثمرة دراساتك، ولأن الرجل يجب أن يعمل.

وصرح الأب رولاند الذي كان يقشر إجاصة:

ـــ ياللعنة! وأنا لو كنت مكانك لاشتريت زورقاً جميلاً، مركباً على شاكلة مراكب قباطنتنا. ولأبحرت به حالاً إلى السنغال.

وأدلى بيير برأيه، فقال:

ـــ ليست الثروة إجمالاً هي التي تكسب المرء قيمته المعنوية، قيمته الفكرية، إنها ليست للأدنين إلا سبباً للانحطاط، بينما هي على العكس مع الأقوياء، ترفعهم، وهؤلاء مع ذلك قلة. فإن كان جان رجلاً عظيماً حقاً، فإنه يستطيع أن يكون كذلك. إنه الآن في مأمن من الحاجة، ولكن عليه

أن يعمل أكثر مما لو كان في ظروف أخرى. يجب ألا يهتم بالمرافعة في قضايا الأرامل واليتامى، وألا يرضى بقدر محدود من الفرنكات عن دعاويه رابحةً أو خاسرةً. بل ينبغي له أن يصبح متشرعاً قانونياً بارزاً، أن يكون نوراً للقانون.

وأضاف كنتيجة لما يقول:

ــ لو أنني أملك المال أنا، لتفرغت لتشريح جثث كثيرة!

فهز الأب رولاند كتفيه وقال:

ــ ترالللا! حكمة الحياة الغظيمة أن تجري حلوة، نحن بشر، ولسنا كالبهائم. يلزم للمرء العمل عندما يولد فقيراً، لا بأس عندئذ أن يشتغل. ولكنه ــ مع امتلاكه الدخل الوفير ــ سيكون بحق الله أحمق لو ربط نفسه بعمل يتعب مزاجه.

فأجاب بيير بتعالٍ:

ــ ليست ميولنا واحدة! فأنا لا أحترم في الدنيا إلا المعرفة والذكاء، وما تبقى فمحتقر عندي.

وكانت السيدة رولاند تجهد دائماً في تخفيف الزعيق الذي لا ينقضي بين الأب وابنه، فغيرت موضوع المحادثة، وتكلمت عن جريمة اغتيال حدثت في الأسبوع الماضي ببلدة (بولبيك ــ نوانتوت) فانشغلت الأذهان على التو بالظروف المحيطة بالجرم، واستجرها الرعب، الرعب المدهش وأسرار

الجرائم الجذابة التي تمارس على الفضول البشري جاذبية غريبة بشكل عام، ولو أنها مبتذلة مخجلة. وقال الأب رولاند وكان طوال الوقت ينظر في ساعته من حين لآخر:

ــ هيا، يجب أن نكون في الطريق.

فقال بيير ساخراً وهو يضحك:

ــ حقاً، لم يبق إلا ساعة واحدة فقط، ولا يدعو هذا أن تطعموني قطعة لحم باردة.

وسألته أمه:

ــ هل تأتي إلى الكاتب بالعدل؟

فأجاب بجفاف:

ــ أنا، لا، لأفعل ماذا؟ إن حضوري لا يفيد البتة.

وكان جان مستمراً على صمته كما لو أن الأمر لا يعنيه. وعندما تحدثوا عن اغتيال بولبيك تحدث بوصفه قانونياً عن بعض الآراء المتعلقة بالجريمة والمجرمين وكيف تطورت. ثم سكت من جديد. وكانت سعادته تظهر في إشعاع عينيه، واحمرار خديه الحيويين، وكل شيء فيه حتى لحيته البراقة.

وبقي بيير وحيداً بعد ذهاب أسرته، فخرج يستأنف بحثه عن شقة

للإيجار. وبعد ساعتين أو ثلاث من صعود الأدراج ونزولها اكتشف أخيراً على شارع فرانسوا الأول شقة ظريفة.

كانت الشقة كبيرة في الطابق الأرضي، لها بابان على طريقين مختلفين، صالتان ورواق بواجهة زجاجية حيث سيتسلى المرضى بين الزهور وهم ينتظرون دورهم، وقاعة طعام فخمة مستديرة تطل على البحر.

وكان الشرط أن يدفع عند الإيجار ثلاثة آلاف فرنك عن المدة الأولى مقدماً، ولم يكن يملك منها فرنكاً واحداً. ولا تكاد الثروة الصغيرة التي جمعها أبوه تصل إلى ثمانية آلاف فرنك من الإيرادات. ولام بيير نفسه لأنه يحرج أهله بتردداته الطويلة في اختيار المهنة، وفي محاولاته التي يهملها دائماً، وفي ابتداءاته المتكررة المستمرة.

خرج وهو يَعِدُ بالجواب قبل انقضاء يومين، وخطرت له فكرة أن يطلب من أخيه حالما يقبض ميراثه قيمة ثلث الإيجار أو حتى نصفه، وقال لنفسه: سيكون ذلك ديناً لأشهر معدودة، وسأسدده قبل انقضاء سنة على الأكثر وهذا ميسور جداً، وسيسرُّ أخي لمساعدتي.

ولما لم تبلغ الساعة الرابعة، ولم يكن لديه شيء يفعله، لا شيء مطلقاً، ذهب ليقعد في الحديقة العامة، بقي على مقعده وقتاً طويلاً لا يفكر بشيء، عيناه إلى الأرض وقد أثقله التعب الذي بات شديداً.

أمضى الأيام السابقة كلها منذ عاد إلى بيت أبيه من باريس كما

يمضيها الآن، لم يكن يتألم كثيراً من الفراغ ولا من البطالة .. كيف كان إذن يمضي وقته من ساعة استيقاظه وحتى نومه؟

كان يتسكع على رصيف الميناء في ساعات المدّ، يتسكع في الطرقات، يتسكع في المقاهي، يضيع وقته عند ماروفسكو، في كل مكان. وفجأةً، وإذا بهذه الحياة التي كان يعانيها حتى الآن، تصير كريهة إليه، لا تحتمل. لو أنّ لديه بعض المال لاستأجر سيارة في نزهة ريفية طويلة يسير بها على طول الحفر المظللة بشجر السنديان والدردار، ولكنه صار يحسب ثمن كأس الجعة وسعر طابع البريد، ولا يُسمح له بتخيل مثل تلك الرغبات. وقال لنفسه فجأة: ما أقسى هذا، أكثر من ثلاثين سنة مضى عليه وهو يخجل من أمه مضطراً من وقت لآخر أن يسألها جنيهاً. وتمتم وهو يحك الأرض بطرف عصاه: يا للعنة! لو أنّ معي المال!

ومن جديد وكلسعة الزنبور ورد إلى خاطره التفكير بميراث أخيه، لكنه أبعده عنه بصبر نافد، وما أحب أن ينساق إلى منحدر الحسد. كان حوله أطفال يلعبون على تراب الممرات الناعم، شقر ذوو شعور طويلة وكانوا يصنعون جادين مهتمين جبالاً من الرمل ليسحقوها بعدئذ بضربة من قدم. كان بيير في ذلك اليوم مكتئباً، ينظر إلى زوايا روحه كلها فرأى طياته تهتز.. وقال في نفسه: إن أعمالنا تشبه تصرفات هؤلاء الأولاد. ثم تساءل: أليس من الحكمة البالغة في الحياة أن ينجب المرء اثنين أو ثلاثة من هذه الكائنات غير المفيدة، ويبصرها تكبر بتسامح واهتمام. ولمسته رغبة في الزواج. ولا يضيع الإنسان إلى تلك الدرجة إذا استطاع أن يتخلص من وحدته، يسمع في

ساعات الضيق والقلق حركة أحد قريباً منه على الأقل، وما أحسن أن يقول لامرأة عندما يشعر بالألم (ياعزيزتي). وأخذ يفكر بالمرأة. كانت معرفته بالنساء بسيطة، وكان له صلات بهن محدودة في الحي اللاتيني، امتدت أسبوعين وانتهت عندما خسر مصروف الشهر، ثم استأنفها في الشهر التالي فحلت محلها صلات جديدة. لا بد أن هناك مخلوقات طيبات جداً، ناعمات جداً، مواسيات جداً، أليست أمه العقل والسحر في منزل أبيه؟ كم يود لو يتعرف على امرأة، امرأة حقيقية!

وقام فجأة مصمماً على الذهاب لزيارة السيدة روزميلي. ثم أحجم بغتة. هذه المرأة تكدره! لماذا؟ إنّ لها عقلاً سوقياً مبتذلاً، ثم ألا تبدو له أنها تفضل جان؟ ولم يعترف لنفسه بشكل واضح أنّ هذا التفضيل هو السبب الأساسي في احتقاره لذكاء الأرملة، لأنه وإن كان يحب أخاه فلم يكن ليستطيع أن يمتنع عن الحكم عليه بأنه متوسط الذكاء، ويعتقد بنفسه أنه الأرفع. ومع ذلك فلن يبقى هناك إلى الليل. وتساءل بقلق كالأمس: «ماذا سأفعل؟».

وشعر عندئذ بأن روحه تحتاج إلى حنان، إلى احتضان وتعزية، وعم تعزّيه؟ إنه لا يدري ما يقول. كان في ساعة من ساعات الضعف والكسل التي يبدو إلى القلوب فيها ضرورة وجود امرأة، مداعبة امرأة.. لمسة من يد، مس من فستان، نظرة حلوة من عين سوداء أو زرقاء، يبدو ذلك ضرورياً جداً والآن.

وخطرت له ذكرى فتاة عاملة في أحد المقاهي، كان صحبها إلى بيتها ذات مساء، ثم كان يراها من حين إلى آخر. فقام من جديد، ومضى ليشرب كأس بيرة معها. ماذا سيقول لها؟ ماذا ستقول له؟ لا شيء بدون شك. لا بأس! أمسك إحدى يديه بالأخرى لحظات! وبدا له أنها تميل إليه. لماذا لا يراها إذن؟.. وجدها مسترخية على كرسي في صالة المقهى الفارغة تقريباً، كان ثلاثة من الشاربين يدخنون الغليون مستندين بمرافقهم على طاولات السنديان، وعاملة الصندوق تقرأ رواية، بينما استغرق رب العمل في نومه على مقعد صغير دون أن يرتدي سترته.

وحينما لمحته الفتاة، قامت بحيوية، وأسرعت إليه قائلة:

ـ أهلاً بك، كيف حالك؟

ـ بخير، وأنتِ؟

ـ أنا، على أحسن ما يكون. ما أقل مجيئك إلى هنا؟

ـ نعم، ليس لدي كثير وقت، تعلمين أنني طبيب.

ـ صحيح! لم تخبرني بذلك. لو كنت أعلم ـ فقد تألمت الأسبوع الماضي ـ لكنت استشرتك. ماذا تريد أن تأخذ؟

ـ كأساً من البيرة، وأنتِ؟

ـ أنا كأساً من البيرة أيضاً، مادمت ستدفع عني.

وأخذت تحدثه دون أن تستعمل عبارات الاحترام، كما لو كان تقديم هذا الشراب إذناً ضمنياً بترك الكلفة. جلسا يتحدثان وجهاً لوجه، وكانت من وقت لآخر تأخذ بيده بألفة بسيطة كما تفعل الفتيات اللواتي يعرضن لطفهن للبيع. ونظرت إليه بعيون جذابة وقالت:

ـــ لماذا لا تأتي أكثر؟ أنت تعجبني كثيراً يا حبيبي.

وبدأ يشمئز منها، رآها حمقاء عامية شعبية. وقال في نفسه: يجب أن تظهر النساء لنا في الأحلام، أو في هالة من الترف تزين ابتذالهن.

وسألته:

ـــ أكنت منذ أيام صباحاً مع فتى جميل أشقر ذي لحية طويلة، أهو أخوك؟

ـــ نعم، هو أخي.

ـــ إنه حقاً لفتى جميل.

ـــ أترين دلك؟

ـــ طبعاً، ثم إنه لذو هيئة مرحة جداً.

أية رغبة غريبة دفعته فجأة ليقصّ على عاملة المقهى هده حكاية ميراث جان؟ لم هذه الفكرة التي ألقى بها من نفسه عندما كان وحيداً، والتي دفعها خوفاً لئلا تنزعج روحه، أجاءت على شفتيه اللحظة؟ ولمادا

تركها تسيل كما لو كان محتاجاً إلى أن يفرغ من جديد أمام شخص ما مرارة قلبه الطافح؟ فقال وهو يضع رجلاً على أخرى:

ـــ لقد كان أخي ذا حظ بهيج، فورث دخلاً يبلغ ٢٠ ألف فرنك.

ففتحت عينيها الزرقاوين الطماعتين باتساع بالغ وقالت:

ـــ أوه، ومنذا الذي خلّف له هذا كله؟ جدته أم خالته؟

ـــ لا، صديق عجوز لأبويّ.

ـــ ما هو إلا صديق؟ غير معقول! ألم يخلّف لك شيئاً؟

ـــ لا، أنا كنت أعرفه معرفة قليلة جداً.

وفكرت لحظات ثم قالت بابتسامة غريبة على شفتيها:

ـــ عظيم، إنّ أخاك لمحظوظ في اكتساب أصدقاء من هذا النوع! حقاً، ليس عجيباً أن يشبهك شبهاً قليلاً!

وتملكته رغبة في أن يصفعها دون أن يدرك بالضبط لماذا؟ وسأل وفمه متشنج:

ـــ ماذا تقصدين بهذا؟

فاتخذت سحنتها شكلاً غبياً ساذجاً. وقالت:

ـــ أنا؟ لا شيء. أريد أن أقول إنه أكثر حظاً منك.

ورمى بعشرين قرشاً على الطاولة وخرج. جعل يردد قولها: «ليس عجيباً أن يشبهك شبهاً قليلاً» بم فكرت؟ ماذا كانت تضمر بهذه الكلمات! إن هنا بالتأكيد لمكراً، لشراً، لعيباً. نعم يجب أن تكون هذه الفتاة اعتقدت أنّ جان ابن ماريشال.

وأحس بالتأثر، وصدمه الشك الذي اتهمت به أمه، حتى إنه توقف عن المشي، وبحث بعينيه عن مكان يقعد فيه. وجد مقهى آخر قبالته فدخله وأخذ كرسياً، ولما جاء النادل إليه قال:

ـــ كأساً من البيرة.

شعر بقلبه يضرب، وأحس بقشعريرة تنتابه، فتجري على جلده. وفجأة خطر له ما قال ماروفسكو ليلة البارحة: «لن يظهر ذلك ظهوراً طيباً» أكانت الفكرة ذاتها لديه، أراوده شك الفاجرة نفسه؟ كان رأسه منحنياً على كأس البيرة، ينظر إلى الرغوة البيضاء التي تفور وتختفي، وتساءل: «أمن الممكن أن يعتقدا بالأمر ذاته؟».

وظهر له العقلان اللذان ولّدا هذا الشك القبيح في النفوس، ظهرا له الآن الواحد بعد الآخر واضحين، جليين، غائظين، لا شيء أكثر بساطة وطبيعية من أن يترك عجوز أعزب لا وريث له، أن يترك ثروته لولدي صديقه، ولكن أن يعطيها لواحد من هذين الولدين، فإن الناس بالطبع

سيندهشون، سيهمسون منتهين إلى ابتسامة. كيف لم يتكهن هو بهذا، كيف لم يشعر به أبوه، كيف لم تكشفه أمه؟ كلا، إنهم كانوا سعداء جداً بهذا المال غير المنتظر لدرجة لم تراودهم معها هذه الفكرة. ثم كيف يستريب هؤلاء الناس الشرفاء بالخزي نفسه؟ ولكنّ الناس، الجار، البائع، البقال، كل هؤلاء الذين يعرفونهم، ألا يرددون هذا الشيء المقيت، يتسلون به، يتلهون، يضحكون من أبيه، يزدرون أمه؟

وستضرب الملاحظة التي أبدتها فتاة المقهى أن حان أشقر وهو أسمر، وأنهما لا يتشابهان، لا في السحنة ولا في المشية ولا في الهيئة ولا في الذكاء، ستضرب على العيون كلها، وعلى الأذهان كلها. عندما سيتحدثون عن ابن رولاند سيقولون: «أيهما الحقيقي، وأيهما المزيف؟».

وقام على قرار أن يتدارك أخاه لينبهه على هذه الإهانة الخطيرة البشعة لشرف أمهما. وما الذي سيفعل جان؟ جان البسيط جداً. سيرفض بالتأكيد الإرث الذي سيذهب حينئذ للفقراء، وعندها يقول للأصدقاء والمعارف الذين يعلمون بهذه الهبة: إن الوصية تحتوي على بنود وشروط غير مقبولة، فهي لا تجعل جان وارثاً بل مؤتمناً.

كان يفكر وهو يدخل إلى بيت أبيه كيف يستطيع أن يخلو بأخيه، فلا يتكلم أمام أبويه بمثل هذا الموضوع. وسمع عند الباب لغطاً لأصوات وضحكات في الصالة، ولما دخل سمع صوت السيدة روزميلي والكابتن بوسير يصطحبهما أبوه ويدعوهما إلى العشاء للاحتفال بالخبر السار.

حمل النبيذ الأبيض وخمور الأبسنت لفتح الشهية، فأخذ الجميع الفرح بادئ ذي بدء. الكابتن بوسير رجل قصير مدور تماماً لكثرة ماتدحرج على البحر، كانت أفكاره كذلك تبدو مدورة كلها مثل حصى الشطآن يضحك ضحكاً فيه كثير من حرف الراء تملأ الحلق، يحكم على الحياة بأنها شيء ممتاز، وكل شيء عنده يصلح للتناول. دق كأسه بكأس الأب رولاند، بينما كان جان يقدم للمرأتين كأسين مملوءتين.

رفضت السيدة روزميلي الشراب، فصاح الكابتن بوسير الذي كان يعرف زوجها المتوفى وقال:

ــ هيا، هيا يا سيدتي، مثلما كنا نقول في لهجتنا: «ما أبهج الأشياء التي تتكرر مرتين[1]» يعني أنه لا بأس بكأسين من النبيذ الأبيض. أقول لكِ: إنني منذ لم أعد أبحر صرت أتناول مثل هذا كل يوم قبل العشاء، ضربتين أو ثلاثاً من الترنح المصنوع! أضيف إليها اهتزازة بعد القهوة، مما يجعلني بحراً هائجاً خلال المساء، ولكنني لا أمضي أبداً حتى العاصفة، أبداً، أبداً، لأنني أخاف العطب.

وضحك رولاند الذي أثنى الكابتن العجوز على هوسه البحري، ضحك من كل قلبه، وقد احمر وجهه وتعكرت عينه من شراب الأبسنت. كان بطنه كبيراً كبطن صاحب الدكان ليس إلا بطناً، تبدو معه بقية أعضاء الجسم لاجئة إليه، واحداً من هذه البطون الرخوة للرجال الذين

---

(١) مثل لاتيني.

يألفون القعود دائماً فلم يبق لهم فخذ ولا صدر ولا ذراع ولا رقبة. كل مادة جسمهم تتكدس في مكان بذاته يجثم على مقر كرسيهم.

وكان بوسير على العكس منه، فبرغم قصره وضخامته، بدا ممتلئاً كالبيضة، قاسياً كالكرة.

ولم تنته السيدة رولاند من كأسها الأول، كانت متوردة اللون من السعادة تلتمع نظرتها، وهي تتأمل ابنها جان.

وتفجرت عند جان أزمة من البهجة، لقد انتهى أمر التوقيع، وبات يملك عشرين ألف فرنك من الإيرادات. كانت تصرفاته توحي بالاعتزاز الذي يمنحه المال لصاحبه، كان يضحك، يتكلم بصوت عالي الجرس، ينظر إلى الناس بصفاء شديد وثقة كبيرة.

أُعلن عن بدء العشاء، وعندما جاء رولاند العجوز ليقدم ذراعه للسيدة روزميلي صاحت زوجته:

ــ لا، لا، أيها الأب، كل شيء اليوم لجان.

كان يتفجر على المائدة ترف غير مألوف: فأمام صحن جان وقد جلس في محل أبيه وضعت باقة ورد ضخمة مملوءة بعُقد من شرائط الحرير، باقة حقيقية للاحتفال ترتفع كقبة مزينة أحاطت بها أربعة أطباق كبيرة من الفاكهة في الأول هرم دراق فاخر، وفي الثاني قالب كاتو ضخم مفعم بالقشدة المخفوقة مغطى بالأجراس والسكر المذاب، وكاتدرائية من

البسكويت، وفي الثالث قطع من الأناناس غارقة في شراب صاف، وفي الرابع عنب أسود فاخر غريب جيء به من البلاد الحارة.

قال بيير وهو يجلس:

ــ عجباً! نحن نحتفل بجان الغني!

وقدمت بعد الحساء خمرة المادير، وكان الجميع يتكلمون في آن واحد، وكان بوسير يقصّ على المائدة كيف حضر بجزيرة (سانت دوماغ) في (هاييتي) طعام جنرال زنجي. وكان الأب رولاند يستمع إليه باحثاً كل البحث عن مكان ينزلق فيه بين الجمل، فحكى له قصة وليمة أقامها أحد أصدقائه في (ميدون)، مرض كل ضيف بعدها خمسة عشر يوماً. وتحدثت السيدة روزميلي وجان وأمه عن مشروع نزهة وغداء في قرية (سان جوان) وأمّلوا فيها متعة لا تنتهي. وود بيير لو أنه تناول عشاءه مفرداً في مطعم متواضع على شاطئ البحر، إذن لتجنب هذا الضجيج كله، وهذه الضحكات، وهذه البهجة المهيجة. وبحث عن السبيل التي تمكنه أن يحدث أخاه عن مخاوفه، فيجعله يتخلى عن الثروة التي قبلها وفرح بها وانتشى منها سلفاً، سيكون ذلك بالتأكيد قاسياً عليه. ولكنه يجب أن يفعله، إنه لا يستطيع التردد، فسمعة أمهما معرضة للمهانة.

واندفع رولاند في قصص الصيد عندما وضعت سمكة كبيرة من سمك القاروس وقصّ بوسير حكايات مدهشة عن (الغابون) وعن (سانت ماري) في مدغشقر، وحكى بشكل خاص عن شواطئ الصين واليابان

حيث للأسماك وجوه ظريفة كوجوه البشر. صور ملامح وجوهها، عيونها الضخمة الذهبية، بطونها الزرقاء أو الحمراء، زعانفها الغريبة التي تشبه المراوح، أذنابها المقصوصة كالأهلة. كان يومئ وهو يتحدث بطريقة ممتعة جداً جذبت الجميع وضحكوا وهم يصغون إليه بدموع. وكان بيير الوحيد الذي يبدو منكراً لما يرى ويسمع، وتمتم: «إنه لمن الحق مايقال من أن النورمانديين هم غاسكونيو الشمال[1]». وبعد السمك جاءت الشطائر، ثم دجاجة مشوية وسلطة وفاصولياء خضراء وفطيرة بلحم العصافير من مدينة (بيتي ڤيبه). وكانت خادمة السيدة روزميلي تساعد في الضيافة، وارتفع السرور بعدد كؤوس الخمرة.

وعندما نُزع غطاء زجاجة الشمبانيا الأولى اهتز الأب رولاند بشدة، وقلّد بفمه صوت فرقعتها ثم صرح يقول:

ــ إنني أحب هذا الصوت أكثر من صوت ضربة المسدس.

وبسخرية ردّ بيير الذي زاد انزعاجه فقال:

ــ غير أن هذا الشراب ربما يكون أكثر خطراً عليك.

فتساءل رولاند الذي كان يهمّ بالشراب فوضع كأسه المملوءة على المائدة:

---

(١) الغاسكونيون: جماعة كانت تسكن جنوب غرب فرنسة تشتهر بقصصها الخيالية الخرافية.

ـــ ولماذا؟

كان الأب رولاند منذ مدة طويلة يشكو من صحته، من الثقل، من الدوار، من انحراف المزاج الدائم الغامض. فأجاب الطبيب:

ـــ لأن رصاصة المسدس يمكن أن تمر بقربك، بينما تخترقك كأس الخمر بعنف في بطنك.

ـــ وثم؟

ـــ وثم، تشتعل معدتك، ويرتبك جهازك العصبي، وتثقل الدورة الدموية، وتتهيأ للسكتة الدماغية التي تهدد كل الرحال ممن هم على مثل مزاجك.

وتبددت النشوة المتنامية لدى الصائغ القديم كسحابة دخان أتت عليها الريح؛ فنظر إلى ابنه بعينين قلقتين ثابتتين يريد أن يفهم إن كان جاداً لا يسخر. ولكن بوسير صاح يقول:

ـــ آه، ما ألعن هؤلاء الأطباء. دائماً يقولون أشياء معينة: لا تأكل، لا تشرب، لا تحبّ، لا ترقص في دائـــــرة.. كل هذا يجلب الـــــ (واوا)[1] للصحة. حسناً، أنا فعلت هذا كله بنفسي يا سيدي، في كل

(١) الواوا: المرض في لغة الأطفال.

أنحاء العالم، في كل مكان، حيثما استطعت، وأكثر مما استطعت، ولم يصبني شر.

فأجاب بيير بمرارة:

ــ أولاً، أنت أيها الكابتن، أنت أقوى من أبي، ثم إن كل الماجنين يتكلمون مثلك حتى اليوم الذي.. ثم لا يستطيعون غداً أن يعودوا ليقولوا للطبيب المتبصر: «أنت على حق أيها الطبيب». من الطبيعي أن أنبه أبي عندما أراه يفعل بنفسه أسوأ شر وأخطره. سأكون ولداً عاقاً لو تصرفت على غير هذه الشاكلة.

وتدخلت السيدة رولاند بخجل وقالت:

ما بالك يا بيير؟ لن يحدث الضرر من مرة واحدة، فكر: كم عيداً عنده؟ كم فرحة عندنا؟ إنك تفسد المسرات كلها وتكدرنا كلنا، إنها مشاجرة هذه التي تفعلها.

فتمتم وهو يهز كتفيه:

ــ ليفعل ما يريد، فأنا أحذره.

ولكن الأب رولاند لم يشرب. كان ينظر إلى كأسه. كأسه المملوءة بالخمرة المتلألئة الشقراء التي تحلق فيها روح خفيفة، روح مسكرة بفقاعاتها الصغيرة الصاعدة من عمقها، ترتفع عجلى، مسرعة، ثم تتلاشى على

السطح. نظر إليها بحذر ثعلب وجد دجاجة ميتة واستراب في الفخ. سأل متردداً:

ـــ أتعتقد أن هذا سيحدث لي كثيراً من الضرر؟

وندم بيير على ما قال، وقد أوشك أن يؤلم الآخرين بسبب مزاجه السيئ فقال:

ـــ لا، هيا، تستطيع أن تشرب مرة واحدة، ولكن لا تجاوز فيها الحدود ولا تأخذها عادة.

وعندئذ رفع الأب رولاند كأسه دون أن يصمم بعد على حملها إلى فمه. كان يتأملها بألم، برغبة، بخشية، ثم شمّها، تذوقها، شربها بجرعات صغيرة مستمتعاً بها وقلبه طافح بالانزعاج والضعف والنزاهة. ثم أحس بالندم عندما تحسى آخر قطرة.

وفجأة التقت عينا بيير بعيني السيدة روزميلي، كانتا صافيتين، زرقاوين، مثبتتين عليه بنظرة صافية قاسية. شعر وأدرك وحزر الفكر الجلي الذي يثير هذه النظرة، الفكر الساخط للمرأة الصغيرة ذات العقل البسيط المستقيم، لأن نظرتها كانت تقول: «أنت حسود يا هذا، وإنه لأمر مخجل». طأطأ رأسه وقد عاد إلى طعامه. لم يكن جائعاً، ووجد كل شيء سيئاً. وألحت عليه رغبة في الخروج، في ألا يكون وسط هؤلاء الناس، ألا يسمعهم يتحدثون، ويتمتعون، ويضحكون.

ونسي الأب رولاند حينما بدأت الخمرة تعكره نصيحة ابنه، ونظر بعين روراء حانية إلى زجاجة الشمبانيا وهي لا تزال ملأى قرب صحنه. ولم يجرؤ على لمسها خشية من توبيخ جديد. وبحث عن طريقة خبيثة بارعة تقوده إلى الشراب بغير أن يثير انتباه بيير. وخطرت له حيلة من أبسط ما يكون، سيأخذ الزجاجة بلا مبالاة ويمسكها من قعرها، ويمد ذراعه حلال المائدة ليملأ أولاً كوب الطبيب الفارغ، ثم يديرها على الأكواب الأخرى، وعندما يصل إلى كوبه هو سيأخذ في الكلام العالي، وإذا صب فيه شيئاً فسيقسم مؤكداً أن ذلك سهو. ومع هذا فلن ينتبه أحد.

وشرب بيير دون أن يفكر. وبحركة لا شعورية، حمل في لحظة وهو متوتر الأعصاب منزعج، كوبه الزجاجي الطويل الساق الذي كان يُرى فيه جريان فقاعاته خلال التراب الحيوي الشفاف. وصبه بعدئذ ببطء في فمه فأحس بلذغة حفيفة ذات حلاوة يحدثها الغاز المتبخر على لسانه.

وشيئاً فشيئاً امتلأ جسمه بحرارة حلوة، خارجة من بطنه، تشبه حرارة الموقد، فاستولت على صدره، ثم انتشرت في أعضائه، وانصبت في سائر حسده كأنها موجة فاترة، حملت معها الفرح شعر معها بالتحسن وأمسى أقل قلقاً، وحف استياؤه، وضعف قراره في أن يكلم أحاه العشية، لا لأنه تنازل عن الفكرة، بل لئلا يعكّر سريعاً متعة أحسها في ذاته.

وقام بوسير ليشرب نخباً، فقال وهو يحيي الحاضرين الجالسين على كل الجهات.

ـــ أيتها السيدات اللطيفات، أيها السادة، إننا مجتمعون لنحتفل بالحادث السعيد الذي أصاب واحداً من أصدقائنا. كان يقال من قبل: «إن الثروة عمياء» وأنا أعتقد أنها كانت ببساطة قصيرة النظر أو عفريتة، وأنها قد اشترت منظاراً بحرياً ممتازاً، سمح لها أن تميّز في ميناء الهافر ابن صديقنا الطيب رولاند، قبطان مركب اللؤلؤة.

وانطلقت من الأفواه استحسانات مشفوعة بتصفيق من الأيدي، فقام الأب رولاند ليجيب. وبعد أن سعل، لأنه كان يشعر بحلقه متلزجاً، وبلسانه ثقيلاً. تلعثم في كلامه، وقال:

ـــ شكراً أيها الكابتن، شكراً لك عن نفسي، وبالنيابة عن ولدي. لن أنسى مطلقاً سلوكك في هذا الظرف. إنني أشرب نخب رغباتك.

وامتلأت عيناه وأنفه بالدموع، وجلس وهو لا يجد كلاماً يزيد عليه. وأخذ جان الحديث بدوره وكان يضحك فقال:

ـــ أنا الذي يجب أن أشكر هنا الأصدقاء المتفانين، الأصدقاء الممتازين، (ونظر إلى السيدة روزميلي) الذين أعطوني اليوم برهاناً على المودة يؤثر في النفس، ولكن لا أستطيع أن أعبر لهم عن شكري بالكلمات، سأثبت لهم ذلك غداً، في كل لحظات حياتي، دائماً.. لأن صداقتنا ليست كالصداقات التي تزول.

وتمتمت أمه بتأثر شديد: «حسن جداً يا ولدي» وصاح بوسير:

ـــ هيا يا سيدة روزميلي، تكلمي باسم الجنس اللطيف.

فرفعت كأسها، وقالت بصوت لطيف متدرج قليلاً في الحزن:

ـــ إنني أشرب نخب الذكرى المباركة للسيد ماريشال.

فخيمت لحظات من هدوء، من تأمل محتشم، كتلك اللحظات التي تكون عادة بعد الصلاة. وأبدى بوسير ـــ وله قدرة على كلام التهنئة السيال ـــ هذه الملاحظة:

ـــ ليس كالنساء في إظهار اللطف.

ثم قال وهو يستدير نحو الأب رولاند:

ـــ حقاً! ماذا كان ماريشال هذا؟ أكنت على مودة معه؟

وشرع العجوز الذي أثاره السكر بالبكاء وقال في صوت متلجلج:

ـــ إنه أخ.. أنتم تعرفون.. لم يبق في الدنيا واحد من مثله.. لم نكن نفترق.. كان يتعشى في بيتنا كل مساء.. وكان يدعونا إلى المسرح.. لا أقول لكم إلا هذا.. إلا هذا.. إلا هذا.. صديق.. حقيقي.. حقيقي.. حقيقي.. أليس كذلك يا لويز؟

فأجابت زوجته ببساطة:

ـــ بلى، كان صديقاً أميناً.

كان بيير ينظر إلى أبيه وأمه. ثم عاد إلى الشراب حينما تغيّر الحديث. ولما انتهت هذه الأمسية، لم يعد يذكر منها إلا القليل.

تناول المدعوون القهوة، وارتشفوا النبيذ، وضحكوا من الفكاهات. ثم آوى هو إلى فراشه في نحو منتصف الليل، مضطرب الذهن، ثقيل الرأس، فنام كالبهيمة حتى الساعة التاسعة من اليوم التالي.

٤

كان النوم السابح بالشمبانيا وبشراب الرهبان الشرترينيين قد لطف مزاجه وهدأه ، لأنه استيقظ في حالة نفسية متسامحة جداً . كان وهو يرتدي ثيابه يقدّر انفعالاته خلال سهرة الأمس ، يزنها ، يلحصها باحثاً بوضوح شديد ، وعلى وجه تام في أسبابها الشخصية ومسبباتها الخارجية في الوقت ذاته .

يمكن فعلاً لفتاة المقهى أن تفكر بفكرة شريرة ، فكرة جديرة بعاهرة عندما تسمع أن ولداً واحداً من ولدي رولاند ورث مس رجل غير معروف ، ولكن ، ألا تراود هؤلاء النسوة المبتذلات دائماً ظنون مماتلة بالنساء التريفات دون ظل من سبب ؟ ألا يتحدثن دائماً ، يشتمن ، يفترين ، يقدحن بأولئك اللواتي يعرفن ألا عيب فيهن؟! ينزعجن في كل مرة تذكر فيها أمامهن امرأة طاهرة ؟ كما لو أن أحداً شتمهن ، ويصحن قائلات : « آه ، أنت تعلم ، إنني أعرفهن ، النساء المتزوجات هؤلاء ، هذا عيب .. ! إنّ لديهن من العشاق أكثر

بما لدينا، هن فقط يخفينهم، لأنهن منافقات. آه! نعم.. هذا عيب!».

ولو كان هو نفسه في أي مناسبة أخرى غير هذه لما فهم بالتأكيد، الافتراض المحتمل ذاته لتعريضات من هذا النوع بأمه المسكينة، الطيبة جداً، البسيطة جداً، الفاضلة جداً، ولكنه ذو روح عكرتها حميرة الحسد الذي تهيّج فيه. عقله الساخط متربص ليقول ذلك، وليقول كل ما يقتدر به على إيذاء أخيه، فأعاره لبائعة البيرة بالرغم منه، أعطاها نيات وقحة لم تكن عندها.

يمكن أن يكون خياله وحده هو الذي خلق هذا الشك، أوجد هذا الشك المخيف، خياله الذي يفر على الدوام من إرادته، فلا يستطيع أن يسيطر عليه، سيذهب هذا الخيال حراً جريئاً مغامراً ماكراً في كون الأفكار اللانهائي، ويحمل من هذه الأفكار بعض الأحيان ما لا يحصى من المخجلات التي يخبئها في نفسه، في أعماق روحه، في الثنايا التي يتعذر سبرها، يخبئها كأشياء مسروقة. إنّ لقلبه ولا شك أسراراً تختبئ دونه. وهذا القلب الجريح، ألم يجد في الشك المقيت وسيلة لحرمان أخيه من الميراث الذي حسده عليه. إنه ارتاب بنفسه هو الآن، وتساءل كما يسأل النساك ضمائرهم، تساءل عن أسرار فكره كلها.

إن للسيدة روزميلي فطنتها، رغم ذكائها المحدود، هي فطنة النساء وإدراكهن الثابت، ومع ذلك فلم تخطر ببالها هذه الفكرة، لأنها شربت ببساطة تامة نخب الذكرى المباركة للمرحوم ماريشال. وما كانت لتفعل هذا

لو لامسها أدنى شك . إنه الآن لا يشك . إنّ استياءه غير الارادي من الثروة الهابطة على أخيه وثقته بأمه وحبه الديني لها نزه وساوسه، وساوسه التقية المحترمة التي بالغ بها .

وسُرَّ لصياغة هذه النتيجة، سرور من يفعل المعروف، وقرر أن يبدو لطيفاً مع الناس كلهم، بادئاً بأبيه الذي كان يسخط عليه باستمرار لعاداته المستكرهة وتأكيداته الحمقاء، وآرائه المبتذلة وغبائه المكشوف المفضوح .

عاد إلى البيت على موعد الغداء، تلطف مع الأسرة كلها بطرائفه وبمزاحه الطيب . قالت له أمه مفتونة : «عزيزي بيرو، إنك لا تدري كم أنت ظريف ولطيف عندما تريد ذلك!» .

تلاعب بالكلام، أضحك الآخرين بأوصاف أصدقائهم التي أبداها بمهارة، عرّض بوسير للسخرية، وتناول السيدة روزميلي قليلاً، ولكن بحذر من غير أن يسيئ أخاه . وقال في نفسه وهو ينظر إلى أخيه : «ولكن، دافع عنها إذن يا مغفل، إنني أستطيع رغم غناك أن أتفوق عليك متى أريد» . وقال لأبيه عندما كانوا يشربون القهوة :

ـــ هل ستستعمل مركب اللؤلؤة اليوم ؟

ـــ لا يا ولدي .

ـــ هل أستطيع أن آخذه مع جان بارت ؟

ـــ بالطبع، كما تريد.

اشترى سيكاراً فاخراً من أول دكان تبغ لقيه. ونزل بخفة نحو الميناء. كانت السماء صافية مضيئة بلونها الأزرق الفاتح يرطبها النسيم البحري ويغسلها. وكان البحار باباغري الملقب بجان بارت نائماً في أسفل المركب، وكان يجب عليه أن يجهز نفسه للخروج كل يوم عند الظهيرة إذا لم يبحر للصيد في الصباح.

وصاح بيير:

ـــ هيا يا ريس.

فأنزل السلم الحديدي وقفز إلى المركب. قال بيير:

ـــ من أين الرياح اليوم؟

ـــ الرياح دائماً من البر يا سيّد بيير. وهناك نسيم ناشط في عرض البحر.

ـــ حسناً، هيا يا عم.

رفعا شراع المقدمة، وجذبا المرساة، فأخذ القارب الحر ينزلق ببطء نحو الرصيف الجانبي فوق ماء الميناء الهادئ. وهب هواء ضعيف آت من خلال الطرقات على أعلى الشراع، كان خفيفاً جداً بحيث لم يكن أحد يشعر به، وبدا مركب اللؤلؤة متحركاً بحياة خاصة من حياة المراكب،

مدفوعاً بقوة خفية مختبئة فيه. وأمسك بيير الحاجز والسيكار بين أسنانه. كانت عيناه نصف مغمضتين تحت أشعة الشمس الباهرة، وأخذ ينظر إلى قطع الخشب الضحمة المقطرنة لكاسر الأمواج تمر تجاهه.

وعندما انطلق المركب إلى عرض البحر، وبلغ آخر الرصيف الجانبي الشمالي الذي كان يحميه انساب على وجه الطبيب وعلى يديه نسيم رطب كان كأنه مداعبة، نسيم بارد قليلاً دخل إلى صدره فانفتح بتنهدة طويلة ملأت فمه. وانبسط الشراع البني، فانتفخ وأمال مركب اللؤلؤة وجعله أكثر خفة. وفجأة رفع جان بارت الشراع المثلث الأمامي فامتلأت أقسامه الثلاثة بالهواء وأشبه جناحاً، ثم ارتد إلى الوراء خطوتين، وفك شراع المؤخرة المربوط بالسارية.

وانبعثت فجأة على جانب المركب المستقر ضجة الماء الفاتر الهارب حلوة نشيطة وجرى بكل سرعته.

كانت مقدمة السفينة تفتح البحر كأنها سكة محراث مجنونة، واليم المرتفع الناعم الأبيض من الزبد يمور وينزل من جديد كنزول تراب الحقل عند الحراثة أسمر ثقيلاً.

وكان مركب اللؤلؤة في كل موجة يلقاها ــ وكانت الموجات قصيرة قريبة ــ يهتز هزة من طرف الشراع المثلث حتى دفة القيادة التي جعلت ترتجف في يد بيير. واشتد هبوب الرياح خلال لحظات فلمست الأمواج جانب المركب، وبدا كما لو أنها ستغطي المركب كله. وكانت إحدى البواخر

التي تسير بالفحم الحجري والقادمة من (ليفربول) راسية بانتظار المدّ. ذهبا يدوران إلى الخلف ثم زارا أحدهما بعد الآخر سفينة في المرسى. ثم ابتعدا قليلاً ليشاهدا الشاطئ الممتد.

تتنزه بيير فوق المياه المرتجفة خلال ثلاث ساعات وهو ساكن هادئ مسرور، كان كطير سريع ليّن الحركة يقود هذا الشيء المصنوع من الخشب والقماش والذي يذهب ويأتي على هواه تحت ضغطة من أصابعه.

واستغرق بأحلامه كما يحلم الناس وهم على ظهر حصان أو على سطح سفينة، وفكر بمستقبله الباهر، وفكر بعذوبة الحياة مع الذكاء، سيطلب غداً من أخيه ١٥٠٠ فرنك قرضاً لثلاثة أشهر، ويستقل حالاً في شقة شارع فرانسوا الأول الفخمة.

قال البحّار فجأة:

— ياسيد بيير، هو ذا الضباب، يجب علينا العودة.

ورفع بيير عينيه، فلمح في الشمال ظلاً رمادياً سميكاً خفيفاً يملأ السماء ويغطي البحر، يسرع نحوهم كغيمة هابطة من شاهق.

غير من اتجاهه، ودفعته الريح الخلفية نحو رصيف الميناء الجانبي، يتبعه الضباب السريع الذي لحق به، وحالما بلغ الضباب مركب اللؤلؤة غلّفه في كثافته غير المحسوسة، وجرت على أعضاء بيير قشعريرة من البرد، وأجبرته رائحة الدخان والعفن، رائحة الضباب البحري الغريبة أن يغلق فمه

لئلا يستطعم السحابة الرطبة الباردة. وعندما أخذ المركب مكانه المعتاد في المرفأ كان البخار الرقيق يكفّن المدينة كلها ويرطبها كرذاذ المطر. وانزلق على المنازل والطرقات كنهر يسيل.

عاد بيير إلى البيت بسرعة وقد تجمدت قدماه ويداه، فاستلقى على سريره ورقد حتى العشاء. وعندما كان في غرفة الطعام سمع أمه تقول لجان:

ــ سيكون البهو رائعاً، سنضع فيه زهوراً، سوف ترى. سأتعهد صيانتها وتجديدها، سيبدو البهو رائعاً جداً عند الحفلات.

وسأل الطبيب.

ــ عم تتحدثين ياأمي؟

ــ عن شقة فاخرة استأجرتها لأخيك، لُقْيَة، طابق أرضي يطل على طريقين. صالتان وبهو بواجهة زجاجية وغرفتا طعام صغيرتان في جناح مستدير. إنها شقة لطيفة تصلح لعروس.

وامتقع لون بيير، وشدّ الغضب على قلبه، وقال:

ــ وأين هذه الشقة؟

ــ في شارع فرانسوا الأول.

زال شكه بما سمع، جلس، كان حانقاً إلى درجة كبيرة بحيث تملكته

رغبة في أن يصيح قائلاً: «هذا غاية القسوة! أليس في الدنيا شقق إلا له!». وكانت أمه تتكلم باستمرار وألق، قالت:

— تصور أنني استأجرتها بألفين وثمانمئة فرنك. كانوا يريدون بها ثلاثة آلاف ولكنني استطعت تخفيض المبلغ مائتي فرنك، بعقد لثلاث سنوات أو ست أو تسع. وستكون الشقة مناسبة لأخيك. يكفي أن يكون الوضع الداخلي أنيقاً ليكسب المحامي ثروة. وهذا ما يجلب الزبائن، يفتنهم، يحتفظ بهم، يفرض عليهم الاحترام، يفهمهم أن رجلاً في منزل كهذا جدير بالتقدير إن طلب أجراً ضخماً لكلامه.

وسكتت لبضع ثوان ثم استأنفت تقول:

— يجب أن نجد لك شقة شبيهة بها، متواضعة، لأنك لا تملك شيئاً، لطيفة، على كل حال، وأؤكد أنك ستنتفع كثيراً بها.

فأجاب بيير بلهجة احتقار:

— أوه! أما أنا، فلن أنجح إلا بالعلم والعمل.

واستأنفت أمه تقول:

— نعم، ولكنني أؤكد لك أن الشقة الجميلة ستخدمك أكثر مع هذا.

وسأل فجأة عند منتصف الوجبة:

ـــ كيف عرفتم ماريشال هذا؟

فرفع الأب رولاند رأسه وبحث في ذكرياته قائلاً:

ـــ رويداً، إنني لم أعد أذكر كثيراً. إن ذلك قديم جداً. آه، أجل، إن أمك هي التي تعرفت إليه في الدكان، أليس كذلك يا لويز؟ كان قد جاء يطلب شيئاً ما. ثم كان يأتي غالباً. عرفناه زبوناً قبل أن نعرفه صديقاً.

واستأنف بيير الذي كان يأكل حبات من الفاصولياء، يشكّها حبة حبة بطرف شوكته، كما لو كان يشك لحماً، واستأنف يقول:

ـــ في أي زمن حصلت هذه المعرفة؟

فبحث رولاند من جديد، لكنه لم يتذكر شيئاً، وطلب إلى زوجته أن تبحث في ذاكرتها:

ـــ في أية سنة، يا ربي، يا لويز، يجب ألا تكوني نسيت، أنت صاحبة الذاكرة القوية؟ يا ربي، كان ذلك في.. في.. في عام ٥٥ أو ٥٦؟ ولكن ابحثي إذن، يجب أن تعرفي أكثر مني؟

وبحثت بعض الوقت بجهد، ثم قالت بصوت واثق هادئ:

ـــ كان ذلك في عام ٥٨ يا زوجي العزيز. كان بيير عندها في الثالثة من عمره، أنا متأكدة أنني لم أخطئ، لأنها السنة التي أصابت الأطفال

فيها الحمى القرمزية، وكان ماريشال ــ الذي لم نكن نعرفه بعد إلا قليلاً ــ نجدةً لنا عظيمة.

فصاح رولاند:

ــ حقاً، حقاً، كان رائعاً، بل أكثر من ذلك! كان يذهب إلى الصيدلي ليحضر الأدوية لك عندما لم تعد أمك بسبب ارهاقها تحتمل أكثر، وكنت أنا مشغولاً في الدكان. حقاً إنه لطيب القلب. ولا تتصور كم كان سعيداً عندما شفيت، وكم كان يضمك إليه، ومنذ ذلك الوقت أصبحنا أصدقاء حقيقيين.

ودخل هذا الخبر المفاجئ إلى نفس بيير كالرصاصة التي تثقب وتمزق، فقال في نفسه: «مادام قد عرفني أولً، ومادام اهتم بي كثيراً، وأحبني وضمني إليه كثيراً، ومادمت سبب صلته الوثيقة بأهلي، فلماذا ترك ثروته كلها لأخي ولم يترك لي شيئاً؟».

لم يسأل أكثر من ذلك، وظل مكتئباً، منهمكاً. وانشغل فكره كثيراً، واحتفظ في ذاته بقلق جديد لا يزال الرشيم الخفي لشره طرياً ملتبساً.

خرج في ساعة مبكرة، وشرع يخبّ في الطرقات. وكان الضباب الذي لا يزال يكفن المدينة يجعل الليل ثقيلاً، كثيفاً، يثير الغثيان، يشبه دخاناً منتناً ضرب الأرض وانتشر عليها. رآه يمر فوق مصابيح الغاز فتبدو

للحظات وكأنها منطفئة. وأمست أرصفة الطرقات لزجة منزلقة كما تكون عادة في أمسيات الصقيع. وبدا كأن الروائح الكريهة العفنة خرجت من بطون البيوت، من الأقبية والحفر والبلاليع والمطابخ الفقيرة لتختلط برائحة الضباب المتنقل البشعة.

ولم يشأ بيير —وقد كوّر ظهره ووضع يديه في جيبيه— أن يبقى بالعراء، في هذا البرد، فذهب إلى ماروفسكو.

وتحت مصباح الغاز الساهر، كان الصيدلي العجوز ينام كعادته. وحينما رأى بيير الذي يحبه حب كلب أمين نفض عنه خموله ومضى يحضر كأسين من شراب الكشمشين.

وسأل الطبيب:

— حسناً، وأين صرت مع نبيذك؟

وشرح له البولوني كيف أن أربعة من المقاهي الرئيسة في المدينة وافقت على طرحه في السوق. وأن جريدة (منارة الشاطىء) وجريدة (سيمافور) في الهافر كتبتا له إعلاناً على أن يبادل به بعض الأدوية يصرفها للمحرورين. وسأل ماروفسكو بعد صمت طويل إن كان جان عزم على امتلاك ثروته؛ ثم سأل سؤالين مبهمين أو ثلاثة حول الموضوع نفسه. وكان إخلاصه المجفل لبير يثور من هذا التفضيل. واعتقد بيير أنه يسمع أفكاره، يخمّن، يفهم، يقرأ في عينيه الحائدتين، في نبرة صوته المترددة الجملَ التي

تأتي على شفتيه ولا يقولها، وما كان ليقولها، لأنه فطن جداً، حجل جداً، حذر جداً.

ولم يعد يشك الآن في أن العجوز يقول في نفسه: «ولماذا تتركونه يقبل هذا الميراث الذي سيجعل الناس يتكلمون بالسوء عن أمكما». ومن يدري! فربما يعتقد أن جان ابن ماريشال. يعتقد ذلك بالتأكيد! كيف لا يعتقده! وأمور عديدة تبدو محتملة، ممكنة، واضحة! ولكن، أما كان هو نفسه، هو بيير الابن، منذ ثلاثة أيام يصارع هذا الشك بكل قوته، بكل دِقة قلبه ليخدع عقله؟ ألم يصارع ضد هذا الشك الرهيب!

ومن جديد، وفجأة رغب أن يخلو بنفسه ليفكر، ليناقش القضية مع نفسه هو، ليواجه بقسوة وبلا وساوس ولا ضعف، ذاك الشيء الممكن القبيح، وسيطرت رغبته عليه فقام قبل أن يشرب كأس الكشمشين، فصافح الصيدلاني المذهول، وغاص ثانية في ضباب الطريق.

تساءل في نفسه: «لماذا ترك ماريشال هذا ثروته كلها لجان؟». لم يعد الحسد الآن هو الذي يدفعه للبحث في القضية، لم تعد الرغبة الدنيئة الطبيعية التي عرف كيف يخفيها في نفسه وهي تصطرع منذ ثلاثة أيام، ولكنه الفزع من شيء رهيب، الفزع من أن يعتقد هو نفسه أن جان أخاه إنما كان ابن ذاك الرجل.

كلا، إنه لم يعتقد هذا، إنه لا يستطيع ولا حتى أن يضع مثل هذا السؤال المجرم! ويجب مع ذلك أن يقذف عن نفسه دائماً هذا الشك

الخفيف غير الممكن كله. ولكن يلزمه الضوء، يلزمه اليقين، يلزمه الاطمئنان التام لقلبه لأنه لا يحب أحداً في الدنيا سوى أمه. سيقوم بالتحقيق الدقيق وحيداً تائهاً في الليل، مع ذكرياته، وسيشيئ عقله الحقيقة الساطعة. وبعد ذاك ستكون النهاية، وبعدئذ سيذهب إلى النوم ولن يفكر أكثر.

قال في نفسه: «لنر، لنفحص الأحداث أولاً، سأتذكر كل ما أعرف عنه، عن سلوكه مع أخي ومعي، سأبحث في كل العلل التي تسببت في هذا التفضيل.. رأى ولادة جان؟ نعم، ولكنه كان يعرفني من قبل. ولو أنه أحب أمي حباً صامتاً ومتحفظاً لكان فضلني أنا، لأنّ ذلك حدث بفضلي وبسبب مرضي بالحمى القرمزية صار صديق أبوي الودود. فالمنطقي إذن أن يختارني. وقد كان شديد العطف علي، إلا إذا كان يحسّ نحو أخي وقد رآه يكبر أمامه بجاذبية وإيثار غريزي».

بحث في ذاكرته، وبتركيز شديد، بكل أفكاره، بكل قدرته العقلية، بحث ليبني من جديد، ليرى مرة أخرى، ليعرف أيضاً، ليدخل إلى نفس الرجل كان بيير يعامله دون اهتمام به خلال سنواته في باريس.

وشعر أن المشي وحركة خطواته الخفيفة يعكران أفكاره قليلاً، يشغلانه عن التركيز، يضعفان امتداد أفكاره، يحجبان ذاكرته. يجب أن يثبت في مكان واسع فارغ، ليلقي نظرة على الماضي وعلى الأحداث المجهولة، نظرة حادة، لا يفر منها شيء. وقرر أن يذهب ليقعد على

الرصيف الجانبي للميناء كما فعل الليلة الأولى. سمع وهو يقترب من المرفأ أنيناً محزناً آتياً من عرض البحر مشؤوماً شبيهاً بخوار ثور، لكنه أطول وأشد. كانت تلك صيحة صفارة إنذار من سفينة تائهة وسط الضباب.

واجتاحت بدنه قشعريرة، قبضت على قلبه، ودوّت في روحه وأعصابه أكثر، واعتقد أنّ صيحة الاستغاثة ألقيت إليه هو. وتأوه بدوره صوت آخر يشبهه أبعد منه قليلاً؛ ثم أجابت عليه قريباً منه صفارة إنذار الميناء فأطلقت صياحاً ممزقاً.

ودخل بيير بسرعة في الرصيف الجانبي وهو لا يفكر بشيء، ورضي أن يدخل في الظلمات المأساوية ذات الخوار. وعندما جلس على نهاية الرصيف أغلق عينيه كيلا يرى بؤر الأضواء الكهربائية المغطاة بالضباب، التي تمكن السفن من دخول الميناء في الليل، وكيلا يرى كذلك ضوء المنارة الأحمر على الرصيف الجانبي مع أنّ العين كانت تميزه بصعوبة. ثم استدار نصف استدارة ووضع مرفقيه على صخور الغرانيت وخبأ وجهه بيديه. كانت أفكاره تكرر «ماريشال، ماريشال» دون أن يلفظ الكلمة بشفتيه، كما لو كان يفعل ذلك لاستدعائه، لاستحضاره وتحريض ظله. وفي ظلام جفنيه المسبلين رآه فجأة، مثلما كان يعرفه، كان رجلاً في الستين من عمره، ذا لحية مدببة بيضاء وحاجبين سميكين بيضاوين كذلك كلهما. لم يكن طويلاً ولا قصيراً، كان بشوش الوجه، عيناه رماديتان حلوتان. يتحرك بتواضع، له هيئة إنسان طيب بسيط حنون. كان ينادي بيير وجان «ولدي

العزيزين» لم يبد عليه أنه فضل أحدهما على الآخر، وكان يدعوهما معاً إلى العشاء.

وبتشبث الكلب الذي يتبع أثراً يتبخر، شرع بيير يبحث في كلمات الرجل الذي غيبته الأرض، في حركاته، في نغمات صوته، في نظراته. كان يتخيله شيئاً فشيئاً، تخيله كله في شقته بشارع ترونشيه عندما كان يستقبلهما على طاولته هو وأخوه. يقوم بشؤونه خادمتان عجوزان، اعتادتا ومنذ مدة طويلة بلا شك أن تقولا: «سيد بيير» و«سيد جان». وكان ماريشال يمد يديه للشابين إذا دخلا عليه اليمنى لأحدهما وللآخر اليسرى وكيفما اتفق. وكان يقول: «أهلاً وسهلاً يا ولدي، ألديكما أخبار عن أبويكما؟ إنهما لا يكتبان لي أبداً».

كان يتكلم بطلاوة وألفة في أشياء عادية، لا شيء غير عادي في ذهن هذا الرجل، وإنما لديه كثير من الرقة والسحر واللطف. كان بالتأكيد صديقاً طيباً لهما، واحداً من الأصدقاء الطيبين الذين لا يشغلون بال أصدقائهم كثيراً. لأنهم يشعرونهم بالوفاء. ومضت الذكريات تجري في خيال بيير... وكان ماريشال في مرات عديدة كلما رآه مهموماً وأحس أنه ضيق ذات اليد كالطلاب، يقدم إليه مبلغاً من المال، يقرضه إياه من تلقاء نفسه، مبلغاً كبيراً، ربما يكون عدة مئات من الفرنكات، ينساها أحدهما فلا تستوفى. وإذن فما دام الرجل يشغل باله باحتياجاته فهو يحبه دائماً ويهتم به دائماً.

وإذن .. إذن، فلماذا ترك ثروته كلها لجان؟ لا. إنه وبشكل ظاهر لا يود الابن الثاني أكثر مما يود الابن الأكبر، لا يهتم بأحدهما أكثر مما يهتم بالآخر، لم يكن أقل حناناً فيما يظهر مع هذا دون ذاك، وإذن .. وإذن .. فهل كان لديه سبب قوي خفي دفعه أن يوصي بماله كله لجان، كله، ولا يعطي بيير شيئاً؟.

وكان كلما أمعن التفكير بذلك، أعاده ذهنه إلى السنوات الأخيرة الماضية ليعيش فيها. وقدر الطبيب أن هذا الاختلاف القائم بينهما عنده غير ممكن ولا يصدق.

ودخل إلى صدره ألم حاد وانزعاج لا يوصف، حركا قلبه كالخرقة المضطربة. وبدا له أنّ قوة قلبه تحطمت، وأنّ الدم يسيل فيه بغزارة لا تتوقف، فاضطرب اضطراب الأمواج. وتمتم بصوت خفيض كأنه يهذي في كابوس: «يجب أن أعرف، يا إلهي، يجب أن أعرف».

وبحث في أبعد من ذلك، في الأزمان القديمة حين كان أبواه يسكنان باريس. كانت صور الوجوه تفر منه، فاختلطت ذكرياته. اجتهد بشكل خاص أن يجد بينها وجه ماريشال بشعره الأشقر، الكستناوي، الأسود؟ فلم يستطع، كانت الصورة الأخيرة لوجه الرجل، لوجه العجوز، تمسح الصور السابقة: وتذكر تماماً أنه كان أكثر نحولاً وأنه ذو يد لينة، وأنه غالباً ما كان يحمل الأزهار، لأن أباه كان يردد بلا انقطاع: «وأيضاً باقات زهور! هذا من الحماقة يا عزيزي، ستنفق مالك كله على الزهور». فكان ماريشال

يجيب : «هون عليك، إن هذا لمما يبهجني» وفجأة كان صوت أمه يقول وهي تبتسم: «شكراً يا صديقي». واجتاح صوتها فدخل إلى نفسه واعتقد أنه يسمعها تنطق به الآن. هكذا كانت تلفظ كلماتها لتنقش في ذاكرة ابنها!..

وإذن، فقد كان ماريشال يأتي بالزهور، هو، الرجل الغني، السيّد، الزبون، إلى هذا الدكان الصغير، إلى زوجة هذا الصائغ المتواضع. أكان يحبها؟ كيف أصبح صديق هذين البائعين إن لم يكن أحب المرأة؟ كان رجلاً مهذباً ذا روح ناعمة جداً. كم من مرة تكلم مع بيير عن الشعر والشعراء! لم يكن يقدّر الأدباء كما يقدرهم الفنانون، ولكنه يهتز للأدب كالبورجوازيين. وكان الطبيب يبتسم غالباً من ذاك الحنان الذي يحكم عليه بأنه أبله قليلاً. وأدرك أن هذا الرجل العاطفي لا يستطيع أن يكون صديق أبيه، أبيه المفرط الواقعية، المفرط المادية، المفرط الثقل، الذي تعني عنده كلمة (شعر) البلاهة.

وإذن، فماريشال هذا، شاب فارغ غني، مستعد لكل حنان، دخل ذات يوم مصادفة إلى الدكان، وقعت عينه على البائعة الجميلة، اشترى، عاد. ومع الأيام صار يتحدث بألفة أكثر، ويدفع في المشتريات ما يمنحه حق الجلوس في بيت المرأة، حق الابتسام للمرأة الشابة، حق مصافحة زوجها. ثم بعد.. بعد.. أوه! يا إلهي... بعدئذ؟ أحب الطفل الأول وداعبه، طفل الجوهري، حتى ولادة الآخر. ثم ظل غامضاً حتى

للموت. ثم بعد أن أغلق قبره، وفسد لحمه، ومحي اسمه من قائمة أسماء الأحياء، واختفى وجوده كله إلى الأبد، ولم يعد يتخذ أي احتياط، للخوف أو للكتمان، أعطى ثروته كلها للولد الثاني!.. لماذا؟.. كان هذا الرجل ذكياً.. فهم وخمّن بدون شك أنه يمكن، يرجح، يفترض حتماً أن هذا الولد له. وإذن فقد أغوى المرأة؟ وكيف يفعل ذلك إن لم يكن جان ابنه؟

وفجأة، اجتاحت نفس بيير ذكرى محددة مخيفة؛ كان ماريشال أشقر، أشقر مثل جان. وتذكر صورة صغيرة رآها في باريس على مدفأة الصالة وقد اختفت. أين هي؟ ضاعت أم اختفت! آه! لو أنه يستطيع أن يمسك بها، ربما تحتفظ بها أمه في درج غير معروف حيث تخبئ بقايا الحب.

وأمست هذه الفكرة تضايقه، تمزقه بشدة، فأطلق آهة واحدة من الآهات القصيرة انتزعها من حلقه بألم حاد. وفجأة زعقت صفارة الميناء بالقرب منه، كما لو فهمته. وأجابته بصراخ مسخ غير عادي أكثر دوياً من الرعد، خرج في زمجرة متوحشة مخيفة هيمنت على أصوات الرياح والأمواج، وانتشرت في الظلمات على البحر غير المرئي المكفن بالضباب.

وخلال الضباب القريب والبعيد كانت تصعد في الليل من جديد صيحات متشابهة. مخيفة هذه النداءات المنبعثة من السفن الكبيرة العمياء. ثم سكت فيما بعد كل شيء.

وفتح بيير عينيه ونظر، دهش أن يكون هنا، تنبّه من كابوسه، وقال

في نفسه : «أنا مجنون ، إنني أشك بأمّي !» وغرق قلبه في موج من الحب والحنان ، من الندم ، من الاستغفار ، من الأسى . أمه ! كيف استطاع مع ما يعرف عنها أن يتهمها ؟ أليست روح هذه المرأة وحياة هذه المرأة البسيطة العفيفة المستقيمة أنقى من الماء ؟ إنك لا تستطيع عندما تراها وتعرفها أن تحكم عليها بما يقبل الشك . إنه هو الابن الذي شك بها ! أوه ! لو يستطيع أن يأخذها بين ذراعيه ، في هذه اللحظة . كم يود لو يقبلها ، يلاطفها ، كم يود لو يجثو بين يديها يسألها الصفح ! أخدعت أباه هي ؟ كان بالتأكيد رجلاً طيباً ، شريفاً ، مستقيماً في تجارته ، ولكن روحه لم تكن تتعدى أفق دكانه . كيف كانت هذه المرأة الفائقة الجمال من قبل . إنه يعرف ذلك ، ولا يزال يرى ذلك ، إنّ روحها ناعمة عاطفية لينة ، فكيف رضيت خطيباً وزوجاً رجلاً يختلف كثيراً عنها ؟ ولم البحث ؟ إنها تزوجت كما تتزوج الفتيات من الشبان الذين يدفعون المهر ، والذين يقدمهم الآباء ، واستقلا سريعاً في مخزنهما بشارع مونمارتر ؛ وجلست وراء طاولة البيع ، متشجعة بروح مقرها الجديد ، بهذا المعنى النافذ المقدس للاهتمام المشترك الذي يحلّ محل الحب ، وحتى محل الحنان في معظم مخازن باريس التجارية ، وبدأت العمل بكل ذكائها الحي الرفيع لجمع الثروة المرجوة لهما . وكانت حياتهما تجري هكذا : رتابة ، هدوء ، شرف ، من غير حنان ..! من غير حنان ؟ أيمكن لامرأة ألا تحب ؟ امرأة شابة جميلة تعيش في باريس ، تقرأ كتباً ، تصفق لممثلات الحب على المسرح . أيمكن أن تقطع الشباب نحو الشيخوخة ، ولا يخفق قلبها ولو لمرة واحدة ؟ لا يصدق ذلك عن امرأة أخرى ، فلماذا يصدقه عن أمه ؟

أكانت بالتأكيد تستطيع أن تحب، كما تحب أي امرأة أخرى! ولماذا تختلف عن غيرها، ولو أنها أمه؟

كانت شابة مع كل الضعف الشاعري الذي يعكر قلوب الشباب. احتجزت، حبست في الدكان قرب زوج مبتذل، يتكلم دوماً في التجارة، بينما كانت هي تحلم بضوء القمر، بالسفر، بالقبلات في ظلام المساء. ثم ذات يوم دخل رجل، كما يدخل العشاق في الروايات، وتحدث كما يتحدثون، أحبته. ولماذا لا تحبه؟..

كانت تلك أمه! حسناً، أيجب عليه أن يكون أعمى وغبياً إلى درجة أن يرفض الوضوح، لأنّ ذلك يتعلق بأمه.

أبذلت نفسها؟ طبعاً، فما دام هذا الرجل من غير صديقة أخرى، طبعاً وما دام قد بقي وفياً للمرأة المعزولة التي شاخت، طبعاً وما دام ترك ثروته كلها لابنه، لابنهما!

وقام بيير مرتجفاً من جنون كهذا، حتى إنه أراد أن يقتل أحداً! كانت ذراعه ممدودة، ويده مفتوحة على سعتها، ترغبان بالضرب، بالرضّ، بالسحل، بالخنق! لمن؟ لكل الناس، لأبيه، لأخيه، للميت، لأمه!

واندفع ليعود. ماذا سيفعل؟ وعندما مرّ أمام برج صغير قرب عمود الإشارات، زعقت صفارة الإنذار بصيحة حادة، أتت على وجهه. ففوجئ

بها بشدة فتعثر ساقطاً وتدحرج راجعاً إلى حاجز الغرانيت حيث جلس خائر القوى قد أنهكته الصدمة.

وبدت الباخرة التي أجابت على الصفارة أول الأمر قريبة جداً ماثلة في المدخل، وكان المد عالياً. واستدار بيير فلمح عين الباخرة حمراء مكدرة بسبب الضباب. ثم ارتسم ظلام كبير أسود بين رصيفي الميناء الجانبيين، ظهر تحت أضواء الميناء الكهربائية المختلطة. وصاح خلفه صوت ساهر، صوت قبطان عجوز مبحوح غائر:

ــ اسم السفينة؟

وأجاب في الضباب صوت قبطان واقف على الميناء، مبحوح أيضاً:

ــ سانت لوسيا.

ــ البلد؟

ــ إيطاليا.

ــ الميناء؟

ــ نابولي.

وخيل لبيير أنه يلمح أمام عينيه المعتكرتين سحابة نار بركان فيزوف، بينما كانت في سفح البركان حشرات تتطاير في غيضة من برتقال سورنت أو كاستيلامار! كم من مرة كان يحلم فيها بهذه الأسماء المألوفة، كما لو كان

يعرف مناظرها ! آه ، لو يستطيع الذهاب حالاً إلى أي مكان ولا يعود أبداً ، لا يكتب لأحد أبداً ، لا يخبر أحداً بما جرى له ! ولكن لا ، يجب أن يعود ، يعود إلى منزل أبيه وينام في سريره ، لا بأس ، لن يعود ، سينتظر النهار ، وأعجبه صوت صفارات البحر .

وقام ثانية وشرع يمشي كضابط يقوم بنوبة حراسة على السفينة . واقتربت سفينة أخرى وراء الأولى ، ضخمة ، عجيبة ، انكليزية عائدة من بلاد الهند . ورأى سفناً كثيرة تعود أيضاً ، تخرج الواحدة بعد الأخرى من الظلام الغامض .

وباتت رطوبة الضباب شديدة لا تطاق ، فأخذ بيير يمشي في الطريق نحو المدينة . وبرد جسمه كثيراً ، فدخل مقهى البحارة ليحتسي مشروباً كحولياً ساخناً ، وعندما أحرق الكحول الساخن المبهر شدقيه وحلقه ، أحس في نفسه بالأمل يولد من جديد .

ربما أخطأ ، إنه يعرف أمه جيداً ، أخطأ بلا شك جنونه المتشرد ؟! لقد كدس البراهين ، ورفعها مثلما يرفع دائماً قرار اتهام ضد بريء لتسهل إدانته عندما يُعتقد أنه مذنب . سيفكر بطريقة أخرى . حينما ينام .

وإذن ، فقد عاد لينام ، وانتهى إلى النوم بجهد مبذول .

٥

ولم يكد جسد الطبيب يسترخي لساعة أو ساعتين في بلبلة نوم مضطرب، حتى استيقظ في ظلام غرفته الدافئة المغلقة، وقبل أن تشتعل الفكرة فيه أحس بضيق مؤلم، إن انزعاج الروح الذي ننام عليه يترك فينا الأسى. ويبدو أن صدمة التعاسة التي ضربتنا بالأمس تنزلق خلال راحتنا، في لحمنا نفسه فتمرض وتتعب كالحمى.

وفجأة تذكر، فجلس في سريره. وبدأ عندئذ ينشئ ببطء، وشيئاً فشيئاً كل الاستدلالات التي عذبت قلبه على رصيف الميناء خلال صرخات صفارات الإنذار. وكان كلما كثر تفكيره قلّ شكّه. كان يشعر أنه مشدود بمنطقيته، كأنما تشده يد وتجذبه نحو يقين لا يطاق وتخنقه، كان عطشان حران، يخفق قلبه، فقام ليفتح نافذته، ويستنشق الهواء، وعندما وقف تناهى إلى سمعه خلال الجدار صوت خفيف.

كان جان ينام بهدوء ويشخر بلطف، ينام. هو! إنه لا يستشعر

بشيء، لا يتنبأ بشيء! رجل كان عرف أمهما، ترك له ثروته كلها، فأخذ المال، وقد وجد هذا صحيحاً وطبيعياً.

كان ينام، غنياً راضياً، لا يعلم أنّ أخاه يلهث من الألم ومن الضيق. قام وفي نفسه سخط على هذا الذي يشخر خالي البال مسروراً.

ليته قرع بابه بالأمس، ودخل، وجلس قرب سريره وقال له بعد أن استيقظ فجأة: «جان، يجب ألا تحتفظ بهذه الهبة التي ستسوق الريبة إلى أمنا غداً والفضيحة» ولكنه لم يعد يستطيع الكلام اليوم. لا يستطيع أن يقول لجان وقد اعتقد أنه ابن لغير أبيهما. الآن، الآن، يجب أن يحفظ في نفسه الخزي الذي اكتشفه هو بنفسه، أن يدفنه، أن يخبئ عن الجميع اللطخة الظاهرة فلا يكتشفها أحد، ولا حتى أخوه، أخوه على الأخص.

لم يعد يفكر أبداً باحترام رأي الناس غير المفيد. لا بأس أن يتهم الناس أمه شريطة أن يعرف طهارتها هو، هو وحده! كيف سيستطيع العيش بقربها على مدى الأيام معتقداً وهو ينظر إليها أنها ولدت أخاه من ملامسة رجل غريب!

كم هي مع ذلك هادئة وصافية في غالب الأحيان، كم تبدو واثقة من نفسها! أيمكن لامرأة مثلها نقية الروح، طاهرة القلب أن تسقط! أن يستجرها الهوى ولا يبدو بعدئذ عليها أمارة. آه! الندم! الندم! يمكن أن يكون عذبها من قبل في الزمان الأول، ثم امّحى مثلما يمّحي كل شيء. إنها بالتأكيد بكت خطيئتها، ورويداً رويداً نسيتها كلها تقريباً. أليس لكل

النساء، كلهن، موهبة على النسيان المدهش الذي يكاد يجعلهن بعد سنوات ينكرن من وهبنه أجسادهن كلها وأفواههن ليقبلها؟ قبلة تضرب كالصاعقة، ويمضي الحب كعاصفة ثم تهدأ الحياة من جديد وتصفو كالسماء، وتعود كما كانت من قبل. أنتذكر سحابة واحدة منها؟

ولم يعد بيير يستطيع البقاء في غرفته. هذا البيت، بيت أبيه يسحقه. شعر بثقل السقف يضغط على رأسه وبالجدران تخنقه. ولما اشتد عطشه أشعل شمعته وذهب ليشرب كأس ماء منعش من مصفاة المطبخ.

نزل الطابقين، ثم صعد بدورق ماء مملوء، جلس بقميص النوم على درجة من درجات السلم حيث كان تيار من الهواء يجري، شرب بدون كوب جرعات طويلة وهو يلهث كعدّاء. وعندما توقف عن الحركة أثّر فيه هدوء المنزل، ثم أخذ يميّز فيه شيئاً فشيئاً أقل نأمة. كان أول ما سمع ساعة غرفة الطعام التي بدت له دقاتها تكبر، تتضخم من ثانية إلى ثانية. ثم سمع من جديد شخيراً، شخير عجوز قصيراً، شاقاً، قاسياً، إنه شخير أبيه دون أدنى شك، شنّجه هذا الشخير، كما لو جاء منبعثاً من نفسه فحسب، لا يرتبط هذان الرجلان اللذان يشخران في المنزل نفسه، الأب والابن، أحدهما بالآخر، لا يجمعها أي رابط، لا يضمهما أي رباط ولو واهناً شديد الوهن يعرفان به! إنهما يتكلمان بحنان، يتعانقان، يبتهجان، يتأثران معاً بالأشياء ذاتها، كما لو أنّ الدم نفسه هو الذي يجري في عروقهما. إنّ شخصين مولودين في طرفين من العالم لا يستطيعان أن يكونا بعيدين أحدهما عن الآخر أكثر من بعد هذا الأب عن هذا الابن.

واعتقدا أنهما يحبان بعضهما بعضاً، لأنّ كذبة كبرت فيهما، كذبة صنعت بينهما هذا الحب الأبوي وهذا الحب البنوي. كذبة يستحيل كشفها، وما عرف أحد أنه ابن غير حقيقي، ومع ذلك، ومع ذلك، فهما مخدوعان. وأنى لهما أن يعرفا؟ آه! لو كان تشابه ولو خفيفاً بين أبيه وجان، واحد من تلك التشابهات الغامضة التي تأتي من الجد إلى الحفيد، مشيرة إلى أنّ الأصل كله ينحدر مباشرة من حب بعينه. يلزمه بوصفه طبيباً شيء صغير جداً، ليعرف شكل الفك، انحناء الأنف، بعد ما بين العينين، طبيعة الأسنان أو الشعر، ولا أقل من حركة أيضاً، عادة، طريقة سلوك، ذوق موروث، إشارة ما، تميزها الممارسة بوضوح. بحث ولم يتذكر شيئاً، لا شيء. ولكنه نظر بسوء، ولاحظ بسوء، ولم يكن لديه أي دليل يكتشف به الإشارات غير المحسوسة. قام ليدخل غرفته، وشرع يصعد الدرج في خطوات بطيئة، وقد استولى عليه التفكير، مر بقرب باب أخيه، توقف فجأة. وامتدت يده ليفتحه. واجتاحته رغبة جامحة في أن يرى جان حالاً، لينظر إليه طويلاً، ليباغته في أثناء نومه حين يكون ساكن الوجه، وخطوط وجهه مسترخية مرتاحة، وتكشيرات الحياة كلها مختفية. وعندئذ يمسك السر النائم في سحنته. وإن وجدت بعض التشابهات الممكنة فلن تهرب منه. ولكن، ماذا لو استفاق جان، ما سيقول له؟ كيف يفسر له هذه الزيارة؟

ظل واقفاً، أصابعه متشنجة على مقبض الباب يبحث عن سبب، وتذكر فجأة أنه منذ ثمانية أيام كان أعار أخاه قارورة دواء لتسكين آلام

الأسنان. وهو نفسه يتألم من أسنانه هذه الليلة، وجاء ليطلب دواءه. فدخل ولكن بقدم اللصّ الخفيفة.

كان فم جان نصف مفتوح، ينام نوماً حيوانياً عميقاً. وكانت لحيته وشعره الأشقران يرسمان بقعة ذهبية فوق البياضات. لم يستيقظ ولكنه انقطع عن الشخير.

ومال بيير نحوه، تأمله بعين متلهفة، لا، هذا الشاب لا يشبه رولاند. وتنبهت في ذهنه للمرة الثانية ذكرى صورة ماريشال الصغيرة المختفية. يجب أن يجدها! ربما لن يعود إلى الشك وهو يراها.

وتحرك أخوه، تضايق من حضوره بلا شك، أو تضايق من ضوء الشمعة الذي دخل إلى جفنيه. وعندها تراجع الطبيب على رؤوس أصابع رجليه نحو الباب، وأغلقه دون ضجيج؛ ثم رجع إلى غرفته ولكنه لم ينم.

أبطأ النهار في قدومه، ودقت الساعات الواحدة تلو الأخرى في ساعة غرفة الطعام، كان صوتها عميقاً مبهماً كما لو بلع جهازها جرس كاتدرائية. كانت الدقات تصعد على الدرج الفارغ وتعبر الجدران والأبواب وتموت في أعماق الغرف في آذان النائمين الجامدة. أخذ بيير يمشي على طول الغرفة وعرضها. من سريره إلى نافذته. ماذا سيفعل؟ شعر باضطراب كبير، لا يستطيع أن يمضي يوم غد مع أسرته. لا يزال يريد البقاء وحده، إلى غد على الأقل، ليفكر، ليهدأ، ليتقوى من أجل الحياة اليومية، التي لا بد لها أن تستمر.

حسناً، سيذهب إلى مدينة (تروفيل) ليشاهد احتشاد الناس على (البلاج). سيسليه ذلك، سيغيّر جو أفكاره، سيعطيه الوقت ليتهيأ للشيء الفظيع الذي اكتشفه.

وعند ظهور الفجر غسل يديه ووجهه وارتدى ثيابه. كان الضباب قد تبدد، والجو جميلاً، جميلاً جداً. ولما كان مركب مدينة (تروفيل) لايغادر الميناء إلا في الساعة التاسعة فقد رأى الطبيب أن يقبل أمه قبل ذهابه.

انتظر لحظة ارتفاع النهار، ثم نزل. كان قلبه يخفق بشدة هو يلمس بابها، حتى إنه توقف ليستعيد أنفاسه. كانت يده الموضوعة على مقبض الباب مرتخية مهتزة، لاتقدر تقريباً على القيام بحركة خفيفة لإدارة المقبض من أجل الدخول. وقرع الباب، فسأل صوت أمه:

ــ من؟

ــ أنا، بيير.

ــ ماذا تريد؟

ــ أود أن أسلم عليك لأنني أريد قضاء نهاري في مدينة (تروفيل) مع أصدقائي.

ــ إنني لاأزال في السرير.

ـــ حسناً، لا تزعجي نفسك، سأقبلك عندما أعود في المساء.

وودّ لو يستطيع الخروج دون أن يراها، دون أن يطبع على خديها قبلة مزيفة تثير غثيانه سلفاً. لكنها أجابت.

ـــ لحظة، سأفتح لك.

وسمع حفق قدميها العاريتين على الأرض الخشبية، ثم صوت المزلاج ينزلق وصاحت:

ـــ ادخل.

دخل. كانت جالسة على سريرها، بينما كان رولاند بجانبها، وعلى رأسه غطاء، وهو مستدير نحو الجدار، يتشبث بالنوم. لا شيء يوقظه، ما لم يهزه أحد فينزع يده.

في أيام الصيد، تناديه الخادمة في الساعة المتفق عليها مع البحار باباغري الذي يأتي ليجرّه من هذه الاستراحة التي لا تقهر.

دخل بيير إلى أمه وهو ينظر إليها، وبدا له فجأة أنه لم يرها قط، ومدت له خديها، فوضع عليهما قبلتين، ثم جلس على كرسي منخفض. قالت:

ـــ أكنت عزمت على هذا الخروج مساء البارحة؟

ـــ نعم، البارحة مساء.

ــ أسوف ترجع لتتعشى؟

ــ لا أدري بعد. وعلى كل حال لا تنتظروني.

كان يتفحصها بفضول مذهل. أهذه أمه. هذه المرأة! بهذا الوجه الذي يراه منذ طفولته، منذ أن استطاعت عينه التمييز. هذه الابتسامة، هذا الصوت المعروف جداً، المألوف جداً، كان يبدو له ذلك كله جديداً تقريباً ومختلفاً عما كان عليه حتى الآن.

فهم الآن ــ لأنه يحبها ــ أنه لم يكن ينظر إليها قط. ومع ذلك فهذه هي، لم يكن يجهل شيئاً من تفاصيل وجهها الدقيقة، ولكنه وللمرة الأولى لمح التفاصيل الصغيرة بوضوح. ونقّب انتباهه المنزعج في هذا الرأس الغالي فكُشفت له التعابير المختلفة التي لم يكن قد عرفها قط.

قام ليخرج، ثم انقاد فجأة لرغبة لم يستطع مقاومتها، في معرفة الشخص الذي اعتصر قلبه منذ أمس، فقال:

ــ قولي إذن، أتذكرين أنه كان فيما مضى صورة صغيرة لماريشال موضوعة في الصالة؟

فترددت لثانية أو ثانيتين، أو على الأقل رأى أنها ترددت، ثم قالت:

ــ أجل.

ــ فما جرى لتلك الصورة؟

واستطاعت أن تجيب سريعاً :

ــ هذه الصورة .. انتظر .. لا أعرف بالضبط، ربما هي عندي في دروجي .

ــ لطفاً، ابحثي عنها .

ــ نعم، سأبحث . ولماذا تريدها ؟

ــ آه ، ليس لي ، لنعطيها لجان ، اعتقد أن ذلك طبيعي ، يجلب له السرور .

ــ نعم، أنت على حق، هذا تفكير طيب ، سأبحث عنها عندما أقوم .

خرج . كان يوماً أزرق ، لم تخالطه نسمة من ريح . وبدا الناس في الشارع مسرورين، وقد بدأوا في الذهاب إلى أعمالهم، الموظفون منطلقون إلى مكاتبهم، والفتيات غاديات إلى مخازنهن، وكان بعض الناس يغنون ويمرحون في وضح النهار .

كان المسافرون قد صعدوا إلى مركب مدينة (تروفيل) حينما جلس بيير في المؤخرة تماماً فوق مقعد خشبي ، وتساءل : «أأزعجها سؤالي عن الصورة ، أم إنها دهشت فقط ؟ أقد ضيعتها أم خبأتها ؟ أتراها تعرف أين هي أم لا تعرف ؟ وإن كانت خبأتها ، فلماذا ؟ واستنتج عقله الذي يتبع دائماً

طريق الاستنباط نفسه إلى الاستدلال: الصورة صورة صديق، صورة حبيب، كانت في البهو بادية للعيان، إلى اليوم الذي لمحت فيه المرأة، الأم، الأولى قبل الناس كلهم أنها تشبه ابنها، لاحظت منذ أمد طويل ولا شك ذاك التشابه.. ثم بعد الملاحظة فهمت أن كل أحد يمكنه في يوم أو في آخر أن يلاحظ أيضاً، فرفعت الصورة الصغيرة التي تبعث على الشك، وخبأتها، ولم تجرؤ على تمزيقها. وتذكر بيير بوضوح أنّ تلك الصورة الصغيرة كانت قد اختفت منذ مدة طويلة، قبل أن تغادر الأسرة باريس! اختفت على ما اعتقد عندما بدأت لحية جان تنبت ويصبح فجأة شبيه الشاب الأشقر الذي كان يبتسم في الإطار.

وعكرت أفكاره وبعثرتها حركة المركب الذي انطلق! فقام وأخذ ينظر إلى البحر. خرج المركب الصغير من الرصيف الجانبي، دار إلى اليسار زافراً لاهثاً مرتعشاً وانطلق إلى الجانب البعيد الذي تلمحه العيون في الضباب الصباحي. ومن مكان لآخر كان يقوم شراع أحمر لقارب صيد ثقيل على صفحة البحر، يتخذ شكل صخرة كبيرة خارجة من الماء. وكان نهر السين يبدو وهو ينحدر من مدينة روان كذراع للبحر عريضة تفصل بين أرضين متجاورتين.

وفي أقل من ساعة وصل المركب إلى ميناء (تروفيل)، ولما كان الوقت وقت استحمام فقد ذهب بيير مباشرة إلى (البلاج).

بدا (البلاج) من بعيد كحديقة طويلة مملوءة بالزهور المتفتحة. وعلى

كثيب كبير من الرمل الأصفر يبدأ من جانب رصيف الميناء وحتى الصخور السوداء كانت المظلات من كل الألوان، والقبعات من كل الأشكال، وملابس النساء من كل درجات الألوان متجمعة أمام مقاصير الشاطئ جماعات أو صفوفاً على طول الموج، أو منشورة هنا وهناك. كانت كأنها باقات زهور ضخمة في مرعى لا حدود له. وكانت ضجة الأصوات المختلطة القريبة والبعيدة تتفتت في الهواء الخفيف، وتمتزج بالنسيم الخفيف الذي يتنفسه الناس نداءات الأطفال الذين يستحمون وصيحاتهم مع ضحكات النسوة اللواتي يصنعن ضجة مستمرة حلوة. سار بيير وسط الناس ضائعاً شديد الضياع، منفصلاً عنهم شديد الانفصال، منعزلاً شديد الانعزال، غارقاً في أفكاره المعذبة شديد الغرق، كما لو ألقته سفينة في عرض البحر. كان يلامسهم، يسمع بعض جمل لا ينصت إليها، يرى الرجال ولا يبصرهم، الرجال يتحدثون إلى النساء، والنساء يتبسمن للرجال. ثم، لمحهم فجأة بجلاء، كأنما كان نائماً فاستيقظ، وانبثق في نفسه حقد عليهم، لأنهم يبدون سعداء مسرورين.

وذهب يقترب من الجماعات، يدور حولها، ممسكاً بأفكار جديدة. فتراءت له كل الملابس المتعددة الألوان التي تغطي الرمال كباقة زهور. الأقمشة البديعة، المظلات الفاقعة اللون، الرشاقة المتصنعة للقامات المعصورة الخصور، ابتكارات الأزياء البارعة كلها من الحذاء الدقيق وحتى القبعات الخارقة، اغواء الحركة، اغواء الصوت، اغواء الابتسامة، الغنج المنشور على الشاطئ.. تراءى له ذلك كله فجأة مثل تفتح زهور ممتدة

لدعارة النساء. هؤلاء النسوة متزينات كلهن ليعجب بهن معجب، ليفتنّه، ليغرينه. إنهن يتزيّن للرجال، لكل الرجال، ماعدا الزوج الذي لا يجدن حاجة للفوز به. إنهن يتزيّن لعاشق اليوم، ولعاشق الغد، لرجل مجهول يلتقين به، يراقبنه، وربما ينتظرنه.

وهؤلاء الرجال الجالسون بالقرب منهن، عيونهم بعيونهن، يتحدثون إليهن فماً لفم، ينادونهن، يرغبون بهن، يطاردونهن كالفريسة المهينة المرئية، يطاردونها برغم أنها تبدو قريبة جداً وسهلة المنال جداً. لم يكن الشاطئ الواسع إذن إلا سوقاً للحب تبيع النسوة أنفسهن فيه، ويعطي الآخرون فيه أنفسهم، هؤلاء يساومون على مداعبتهن، وأولئك يعطين الوعد فقط. لا يفكرن إلا بشيء واحد، بالتشويق إلى لحومهن وتقديمها، وكن قدمنها من قبل، بعنها من قبل، وعدن بها من قبل رجالاً آخرين. وقال في نفسه: لا جديد على الأرض. ولقد فعلت أمه ما تفعله النساء الأخريات. هذا هو كل شيء! مثل الأخريات؟ لا، هناك استثناءات كثيرة، كثيرة! هؤلاء اللواتي يراهن حوله، غنيات، مجنونات، باحثات عن الحب، عضوات بالإجمال في نادي الغزل الأنيق المتفلت، بل وحتى الغزل المحدد السعر، لأنه لم يلتق على الشاطئ بشعب من النساء الشريفات، الحبيسات في البيوت المغلقة، وإنما اجتمع بآثار خطىّ لجيش من النسوة المتبطلات.

وارتفع مدّ البحر وجعل يطرد رويداً رويداً نحو المدينة الصفوف الأولى من المستحمين، وشوهدت الجماعات تقوم بحيوية وتهرب حاملة مقاعدها،

متراجعة أمام الموج الأصفر الذي أتى مزركشاً (بدانتيللا) لطيفة من الزَّبد. وصعدت أيضاً المقصورات المتنقلة المربوطة بالخيول، وارتفع على رصيف الخشب الموضوع للنزهة والذي يحفّ بالشاطئ جمهور أنيق يسيل باستمرار سميكاً بطيئاً مشكلاً تيارين متعاكسين يتلازمان ويختلطان. وهربَ بيير ثائر الأعصاب مغيظاً من هذا الاحتكاك، فغاص في المدينة وتوقف للغداء عند مدخل الحقول أمام بائع خمر متواضع.

وعندما تناول قهوته استلقى على كرسيين بجانب الباب، ولما لم يكن قد نام ليلة البارحة، فقد غفا في ظل شجرة زيزفون. وانتفض بعد بضع ساعات من الراحة، إذ تبين له أن موعد عودة السفينة حان، فمضى في الطريق مثقلاً من التعب المفاجئ الذي سقط عليه خلال إغفائه. يريد الآن العودة، يريد أن يعرف إن كانت أمه وجدت صورة ماريشال. أتتحدث هي عنها أولاً، أم يجب أن يسألها من جديد، إنّ لها بالتأكيد لسبباً خفياً في إخفائها.

ولكنه عندما دخل غرفته، تردد في النزول للعشاء، كان يتألم كثيراً، ولم يمتلك قلبه المغيظ وقتاً كافياً ليسكن. وعزم مع ذلك على النزول، وظهر في غرفة الطعام عندما كانت الأسرة كلها على المائدة.

كانت البهجة تحرك الوجوه. قال رولاند:

ـــ حسناً، هل هناك تقدم في مشترياتكم؟ أما أنا، فلا أريد أن أرى شيئاً قبل أن يوضع في مكانه.

فأجابت زوجته :

ـــ طبعاً ، كل شيء على ما يرام ، يلزمنا فقط وقت طويل للتفكير ، كيلا نرتكب عملاً مغلوطاً . إن مسألة الأثاث تشغل بالنا كثيراً .

كانت قد أمضت نهارها مع جان في زيارة محلات السجاد ومخازن الأثاث . إنها تريد أقمشة فاخرة ، باذخة قليلاً ، تلفت النظر . وكان ابنها على العكس منها يرغب في الأشياء البسيطة المتميزة . ولذا أخذا يعيدان حججهما تلقاء كل النماذج المقترحة . ادعت أنّ الزبون صاحب الدعوى بحاجة إلى الانطباع الذي يجعله يشعر بالغنى وهو يدخل إلى صالة الانتظار . بينما كان جان يرغب ألا يستجر سوى الزبائن الأنيقين الأثرياء ، يريد أن ينتصر على عقول النبهاء بوساطة ذوقه المتواضع الواثق . وعندما كانوا يتناولون الحساء ، أعيدت المناقشة التي استمرت النهار كله . ولم يكن لرولاند رأي ، وكان يردد :

ـــ أما أنا ، فلا أريد أن أسمع حديثاً عن شيء ، سأذهب لأرى عندما سينتهي هذا .

ودعت السيدة رولاند ابنها الأكبر ليعطي حكمه ، فقالت :

ـــ لنر ، أنت يا بيير ، ما رأيك فيما نقول ؟

كانت أعصابه مهتاجة إلى درجة عالية ، بحيث رغب أن يرد بلعنةٍ . ولكنه قال بلهجة جافة تهتز من سخطه :

ـــ أوه ! أما أنا فعلى رأي جان تماماً . لا أحب إلا البساطة التي هي في مجال الذوق كالاستقامة في مجال الأخلاق .

فردت أمه تقول :

ـــ فكر في أننا نسكن مدينة تجارية ، حيث لا يتوافر الذوق الرفيع في كل مكان .

فأجاب بيير :

ـــ هذا لا يهم؟ هل هذا سبب لتقليد الحمقى؟ أأحتاج إن كان المواطنون أغبياء أو أراذل أن أكون على مثالهم؟ أيجب أن ترتكب امرأة خطيئة بسبب أنّ لجاراتها عاشقين .

وشرع جان يضحك قائلاً :

ـــ إنّ لديك لحججاً تبدو مأخوذة من تشبيهات في أمثال الحكماء .

ولم يرد بيير . واستأنفت أمه وأخوه الحديث عن الأقمشة والأرائك . ورآهما مثلما رأى أمه عند الصباح قبل خروجه إلى مدينة (تروفيل) رآهما كغريب يلاحظ . وشعر حقيقة كأنما دخل فجأة في أسرة لا يعرفها . ودهش على الأخص من أبيه ، دهشت منه عيناه وفكره . هذا الرجل الضخم الرخو المسرور الأحمق هو أبوه ، له ! كلا ، كلا ، لا يشبهه جان أبداً .

أما أسرته فقد انتزعت منها منذ يومين يد مجهولة شريرة ، يد ميت ،

انتزعت كل الروابط التي تربط هذه الكائنات الأربعة بعضها ببعض، وحطمتها شيئاً فشيئاً، لقد انتهت، كسرت، لم يعد له أم، لأنه لا يستطع أن يحبها، لا يستطع أن يجلّها باحترام مطلق حنون تقي، تحتاج إليه قلوب الأبناء، ولم يعد له أخ، ما دام هذا الأخ ابناً لرجل غريب، لم يبق له إلا أب، هذا الرجل الضخم الذي لا يحبه. قال فجأة:

— قولي إذن يا أمي، هل وجدت الصورة؟

ففتحت عينين مدهوشتين وقالت:

— وأي صورة؟

— صورة ماريشال.

— لا.. يعني... نعم... ما وجدتها، ولكنني أعرف مكانها على ما أعتقد.

وسأل رولاند:

— وماذا إذن؟

فقال له بيير:

— صورة صغيرة لماريشال، كانت فيما مضى في صالة بيتنا بباريس، أعتقد أنّ جان سيسر لو تكون عنده.

وصاح رولاند:

ـــ طبعاً، طبعاً، أذكر تماماً، وقد رأيتها نفسها في نهاية الأسبوع الماضي كانت أمك قد أخرجتها من درجها، وقد تآكل أديمها. كان ذلك يوم الخميس أو الجمعة. هل تذكرين يا لويز؟ لقد كنت أحلق عندما أخذتها من الدرج، ووضعتها فوق الكرسي قبالتك مع كومة من الرسائل التي أحرقتِ نصفها. ها؟ أليس ظريفاً أنك لمست تلك الصورة قبل يومين أو ثلاثة من وراثة جان؟ لو أنني أعتقد بالمشاعر المسبقة، لقلت إنها هي هذه.

وأجابت السيدة رولاند بهدوء:

ـــ نعم، عرفت أين هي، سأذهب لأحضرها حالاً.

وإذن فقد كانت تكذب! كذبت في الصباح عندما أجابت ابنها عنها، فقال: «لا أعرف بالضبط، ربما هي عندي في دروجي» كانت رأتها لمستها، جستها، تأملتها، قبل أيام قليلة، ثم خبأتها في درج خفي، مع الرسائل، رسائله لها.

نظر بيير إلى أمه التي كذبت، كان ينظر إليها بغضب ابن مغيظ مخدوع، افتقد محبة مقدسة، وبغيرة رجل طال عماه، ثم اكتشف أخيراً خيانة مخزية. لو أنه كان زوج هذه المرأة، هو ابنها، لأمسكها من معصميها، من كتفيها، من شعرها وألقاها أرضاً، ضربها، سحقها! بيد أنه

لا يستطيع أن يقول شيئاً ، ولا أن يفعل شيئاً ، ولا أن يشير إلى شيء ، ولا أن يبوح بشيء ، لأنه ابنها ، وليس لديه سبب للانتقام ، فهو لم ينخدع ، ولكنها خدعته بحنانها ، خدعته باحترامها التقي . كان يجب عليها أن تكون بالنسبة إليه أماً بلا عيوب ، كالأمهات كلهن بالنسبة لأولادهن . ووصل الاندفاع الذي أسخطه إلى درجة الحقد فشعر بأنّ إجرامها نحوه أشد من إجرامها نحو أبيه نفسه .

حب الرجل المرأة بالزواج عقد ارادي ، يذنب أحدهما فيه إذا خان صاحبه ، ولكن المرأة عندما تصبح أماً يكبر واجبها لأن الطبيعة عهدت إليها بحفظ الجنس . فإن خانت فهي عندئذ جبانة ساقطة دنيئة .

قال رولاند فجأة وهو يمدّ ساقيه تحت الطاولة مثلما يفعل كل مساء عندما يشرب كأساً من النبيذ :

ــ لا بأس على كل حال أن يعيش المرء بلا عمل عندما يملك بحبوحة صغيرة . وأرجو أن يقدم لنا جان عشاءات فاخرة منذ اليوم ، ولا يهمني والله أن أصاب أحياناً بآلام معديّة .

ثم استدار نحو زوجته قائلاً :

ــ هيا ، اذهبي فأحضري تلك الصورة يا قطتي ، ما دمت قد فرغت من طعامك ، فإن رؤيتها تبهجني أيضاً .

قامت ، وأخذت شمعة ، ثم خرجت ، وبعد غيابها الذي بدا طويلاً

لبيير برغم أنه لم يستمر ثلاث دقائق عادت مبتسمة وهي تمسك بحلقة إطار مذهب من طراز قديم وقالت :

ـــ هي ذي، وجدتها مباشرة تقريباً .

كان الطبيب أول من مد يده . تسلّم الصورة ، ومن بعيد قليلاً على طرف ذراعه فحصها . ثم وهو يشعر تماماً أنّ أمه تنظر إليه قام ببطء وعيناه على أخيه ليقارن . وكاد أن يقول بعنف : « آه ، إنها تشبه جان » لكنه لم يجرؤ على تلفظ هذه الكلمات الرهيبة ، فأظهر أفكاره وهو يقارن الوجه الحي بالوجه المرسوم.

إنّ للوجهين بالتأكيد علامات مشتركة : اللحية نفسها ، والجبهة نفسها ، ولكن لا شيء دقيق يكفي ليسمح بالتصريح بأنّ : « هذا هو الأب ، وهذا هو الابن » فإلى جانب هذه العلامات المشتركة هناك شكل الأسرة ، وتقارب المظهر الذي يحركه الدم نفسه . الأمر الذي لو توافر لبيير لكان عنده أكثر قطعية من مظهر الوجوه هذه ، وهو ما جعل أمه تقوم وتدير ظهرها متظاهرة أنها تخبئ وببطء شديد السكر والنبيد في الخزانة . وفهمت أنه عرف ، أو أنه على الأقل كان يشك !

قال رولاند :

ـــ هيا ، هات هذه .

ومد بيير الصورة، وسحب أبوه الشمعة ليرى بوضوح، ثم تمتم بصوت حنون:

ـ ياللولد المسكين! من كان يظن ذلك، عندما التقينا به، ياللعنة! ما أسرع الحياة! كان على كل حال رجلاً جميلاً في ذلك الزمن، ومؤدباً جداً، أليس كذلك يالويز؟

ولما لم تجب زوجته استأنف يقول:

ـ إنه معتدل الأخلاق! لم أره قط منحرف المزاج. هو ذا قد انتهى، لم يبق منه شيء، إلا الذي تركه لجان. وبعد كل شيء أقسم إن هذا ليدل على أنه صديق طيب مخلص حتى النهاية، ولم ينسنا حتى وهو يموت.

ومدّ جان بدوره ذراعه ليأخذ الصورة. تأملها بضع لحظات ثم قال بأسف:

ـ أنا، لم أكن أعرفه أبداً، إنني لا أذكره إلا بشعره الأبيض.

ورد الصورة إلى أمه. فألقت عليها نظرة عجلى، وأدارت عنها وجهها بسرعة، وبدت خائفة، ثم قالت بصوتها الطبيعي:

ـ إنها تخصك الآن يا جانو، مادمت وريثه. سنضعها في شقتك الجديدة.

وعندما دخلوا إلى الصالة، وضعت الصورة الصغيرة على المدفأة قرب الساعة، مثلما كانت من قبل.

أشعل بيير وجان سيكارتين. كانا يدخنان عادة وأحدهما يمشي خلال الغرفة، بينما يجلس الآخر غائصاً في أريكة يريح رجلاً على رجل. كان رولاند يحشو غليونه، يجلس عادة على الكرسي جلسته على حصان، يبصق من بعيد في المدفأة، وكانت السيدة رولاند على مقعد واطئ، قرب طاولة صغيرة عليها ضوء، تطرز، أو تنسج الصوف، أو تضع علامات على البياضات. كانت بدأت هذه الأمسية بقطعة (كنفا) لغرفة جان، وهو عمل صعب معقد تتطلب بدايته انتباهها كله. ومع ذلك فقد كانت عينها التي تعدّ الغرزات ترتفع وتذهب سريعة عابرة إلى صورة الميت الصغيرة المستندة على الساعة. وكان الطبيب يقطع عرض الصالة في أربع خطوات أو خمس ويداه خلف ظهره وسيكارته بين شفتيه ويلتقي كل مرة بنظرة أمه.

يمكن القول إنهما كانا يتبادلان النظر بتربص، وقد بدأ بينهما صراع قلق مؤلم لا يحتمل، يقبض على قلب بيير. قال في نفسه معذباً وراضياً في الوقت ذاته: «أهي تتألم في هذه اللحظة إن عرفت أنني كشفتها!» وفي كل دورة نحو الموقد كان يتوقف لبضع ثوان فيتأمل وجه ماريشال الأبيض، وليبدو منه أن فكرة ثابتة تلاحقه. كانت الصورة الصغيرة بقدر يد مفتوحة تظهر شخصاً حياً شريراً مرعباً، دخل فجأة إلى هذا البيت، إلى هذه الأسرة.

وفجأة رن جرس الباب الخارجي، فاعترت السيدة رولاند الهادئة

جداً على الدوام رجفة كشفت للطبيب عن اضطراب أعصابها. ثم قالت:

ــ يجب أن تكون هذه السيدة روزميلي:

وارتفعت عينها التي لا تزال قلقة نحو المدفأة. وفهم بيير أو اعتقد أنه فهم ذعرها وانزعاجها. نظرة النساء ثاقبة، وذهنهن متوقد، وفكرهن شكاك. وعندما ستدخل، ستلمح الصورة الصغيرة غير المعروفة، وللنظرة الأولى ربما ستكتشف التشابه بين هذا الوجه ووجه جان. وعندها ستعرف، ستفهم كل شيء! وأدركه الخوف، خوف مفاجئ من كشف هذا العار، واستدار عندما فتح الباب، فأمسك بالصورة الصغيرة فدفعها تحت الساعة دون أن يراه أبوه أو أخوه. والتقت من جديد عيناه بعيني أمه فبدتا له متغيرتين، متعكرتين، زائغتين.

قالت السيدة روزميلي:

ــ طاب مساؤكم، جئت أشرب معكم فنجاناً من الشاي.

ولكنهم حينما التفوا حولها ليسألوا عن حالها كان بيير قد اختفى من الباب الذي بقي مفتوحاً. ولما أحسوا بخروجه دهشوا. واستاء جان، خشي أن تجرح الأرملة الشابة فتمتم:

ــ يا للوحش!

وأجابت السيدة رولاند:

ـــ لا تؤاخذوه، إنه مريض قليلاً، متعب من نزهة إلى (تروفيل).

فأجاب رولاند:

ـــ ومهما يكن فليس هذا سبباً يدفعه ليفر كالحيوان المتوحش.

وأرادت السيدة روزميلي تلطيف الجو فقالت مؤكدة:

ـــ كلا، كلا، إنه ذهب دون حاجة إلى استئذان، فأحدنا يذهب دائماً هكذا عندما يخرج مبكراً قبل الآخرين.

فأجاب جان:

ـــ أوه! إن هذا ممكن في المجتمع، لا في الأسرة، وأخي ما كان يفعل مثل هذا إلا منذ مدة يسيرة.

٦

ولم يجدّ شيء في أسرة رولاند على مدار أسبوع أو أسبوعين، الأب يصيد، وجان تساعده أمه ليستقل في شقته، وبيير المكتئب لا يظهر إلا في ساعات الوجبات. وسأله أبوه ذات مساء:

ــ لماذا بحق الشيطان يبدي لنا وجهك شكل المأتم، هذا ما ألاحظه عليك منذ مدة.

فأجاب الطبيب:

ــ ذلك لأنني أشعر بثقل الحياة على شكل مفرط.

فلم يفهم الرجل من ذلك شيئاً، وقال بهيئة متأسفة:

ــ حقاً إن ذلك لعجيب جداً. فمنذ أن سعدنا بهذا الميراث والجميع تبدو عليهم التعاسة كما لو أن حادثاً مؤلماً نزل بنا، كما لو أننا نبكي أحداً.

قال بيير:

ــ أنا في الحقيقة أبكي واحداً.

ــ أنت؟ من هو إذن؟

ــ آه! واحداً لا تعرفه، وأنا أحبه كثيراً جداً.

وخيل لرولاند أن الكلام يتعلق بحب عابر، بعاهرة غازلها ابنه، فسأله:

ــ امرأة بلا شك؟

ــ نعم، امرأة.

ــ ميتة؟

ــ لا، أشد من ذلك.

ــ آه!.

ورغم أن العجوز دهش لهذه المكاشفة غير المتوقعة أمام زوجته، ولهذه اللهجة الغريبة من ابنه، إلا أنه لم يلح في السؤال، لأن مثل هذه الأمور في رأيه تخص أصحابها.

وبدا على السيدة رولاند كأنها لم تسمع، بدت مريضة، شاحبة الوجه جداً. كان زوجها في كثير من المرات يعجب عندما كان يراها وهي

تقعد على كرسيها كما لو أنها تسقط، وعندما كان يسمعها تلهث في كلامها كما لو أنها لا تستطيع التنفس. قال لها:

ــ حقاً يا لويز، إنّ مظهرك سيئ، إنك تتعبين نفسك كثيراً في انتقال جان إلى بيته! استريحي قليلاً، يا للعنة! ليس مستعجلاً ذلك القوي لأنه غني.

فهزت رأسها دون أن تجيب. وزاد شحوبها في ذاك اليوم كثيراً لدرجة أن رولاند لاحظ عليها من جديد ما كان لاحظه فقال:

ــ هذا غير ممكن أبداً يا عجوزي المسكينة، يجب أن تعتني بنفسك.

ثم التفت إلى ابنه وقال:

ــ أنت ترى جيداً، أنها متألمة، أمك، ألا تفحصها على الأقل؟

فأجاب بيير:

ــ لا، لا ألاحظ عليها شيئاً.

فانزعج رولاند وقال:

ــ ولكن ذلك يفقأ العيون، لأجل الكلاب! ماذا ينفع أن تكون طبيباً إذا لم تلاحظ أنت بالذات أن أمك متوعكة؟ ولكن انظر إليها، انظر إليها، لا، حقاً، ربما تموت وهذا الطبيب لا يشك بشيء أبداً.

وأخذت السيدة رولاند تلهث، وامتقع لونها لدرجة أنّ زوجها صاح:

ــ ولكن، سيغمى عليها.

ــ لا.. لا.. هذا لا شيء.. هذا سيمر.. هذا لا شيء.

واقترب بيير وهو ينظر إليها بثبات وقال:

ــ هيا، قولي، من أي شيء تشكين؟

فردت بصوت منخفض سريع:

ــ لا شيء.. لا شيء.. أؤكد لك.. لا شيء.

وخرج رولاند ليحضر خلّاً، عاد، ومدّ الزجاجة إلى ابنه قائلاً:

ــ خذ سكن وجعها إذن، أنت، هلّا سمعت دقات قلبها على الأقل؟

ولما انحنى بيير ليأخذ نبضها، سحبت يدها بحركة مفاجئة جداً، فصدمت كرسياً بقربها. فقال بصوت بارد:

ــ هيا، دعيني أعتني بك مادمت مريضة.

وحينئذ قامت ومدت له ذراعها. كان جلدها ملتهباً، وضغط الدم عندها هائجاً مهتزاً. وتمتم:

ـــ في الحقيقة، هذا أمر ذو شأن، يجب أن تأخذي مهدئات. سأكتب لك وصفة.

وحينما كان يكتب منحنياً على ورقته استدار فجأة ليسمع تأوهاتها عجلى تختنق بأنفاس قصيرة. كانت تبكي ويداها على وجهها. وسأل رولاند باضطراب:

ـــ لويز، لويز، ما بك؟ ولكن ما بك إذن؟

لم تجب، وبدت ممزقة باكتئاب رهيب عميق. وأراد زوجها أن يأخذ يديها ويبعدهما عن وجهها، فقاومت وهي تردد:

ـــ كلا، كلا، كلا.

فاستدار نحو ابنه قائلاً:

ـــ ولكن ما بها؟ لم أرها قط كذلك.

فقال بيير:

ـــ لا شيء، أزمة عصبية بسيطة.

وبدا له أن قلبه يتعزى لرؤيتها معذبة هكذا، وأن هذا الألم يخفف حقده عليها، ويقلل من العقوبة المتوجبة على عار. وتأملها كقاض رضي عن عمله.

وقامت فجأة، فانطلقت نحو الباب باندفاع غير متوقع لا يستطيع أحد أن يوقفه، وركضت لتحتبس نفسها في غرفتها. ومكث رولاند والطبيب وجهاً لوجه، فقال الأول:

ـــ هل فهمت من ذلك شيئاً؟

فأجاب الآخر.

ـــ نعم، هذا بسبب توعك عصبي بسيط صغير، وهو يظهر غالباً في مثل عمر أمي. ومن المحتمل أنه سيعاودها مرات كثيرة.

وحدث لها في الواقع أزمات كهذه انتابتها كل يوم تقريباً، أزمات بدا كأن بيير سببّها بكلمة واحدة، كما لو كان عنده سر من شرها الغريب غير المعروف. راقب في وجهها تناوب الراحة، ومع حيل التعذيب أيقظ بكلمة واحدة ألماً كان هادئاً إلى وقت قريب.

كان يتألم بقدر ألمها. يتألم بشدة لأنه لم يعد يحبها، لأنه لم يعد يحترمها، لأنه يعذبها، يتألم لأنه يلهب الجرح الدامي الذي فتحه في قلب المرأة والأم، وعندما كان يشعر بشدة بؤسها ويأسها، فإذا عذبه الندم ومزقته الشفقة وخجل أن يحطمها باحتقاره ذهب إلى المدينة وحيداً.. ورغب أن يلقي بنفسه في البحر، أن يغرق لينتهي من ذلك كله.

أواه! كم يريد أن يسامح، الآن! ولكنه لا يستطيع وهو في حالة لا يقدر معها على النسيان، لو أنه يستطيع ألا يؤلمها، إنه هو نفسه يتألم

دائماً، كان يأتي في أوقات الوجبات وهو ممتلئ بقرارات لطيفة، ثم عندما يلمحها، عندما يرى عينها الطاهرة الصادقة فيما مضى، الهاربة الفزعة التائهة اليوم، يضرب الأسماع رغماً عنه بجملة قاسية لا يستطيع أن يحتفظ بها دون أن تصعد إلى شفتيه.

وينخسها السر الدنيء الذي يعرفانه هما وحدهما. إنه سمّ يحمله الآن في أوردته، فيرغب معه أن يعضّ على طريقة كلب مسعور. لم يعد شيء يضايقه، ذلك لأنها تتمزق باستمرار، وذلك لأن جان يسكن الآن في شقته الجديدة، وعند المساء يأتي ليتعشى وينام مع الأسرة. وغالباً ما كان جان يلمح مرارة في عين أخيه التي تنبئ عن الحسد وعنفاً. ولقد رجا أن يقفه عند حده، وأن يعطيه درساً في يوم أو في آخر، لأنّ حياة الأسرة غدت قاسية جداً مع تتابع هذه المشاهد المستمرة. ولكن ألمه من هذه الفظاظات غدا أقل، لأنه يعيش الآن مستقلاً عن الأسرة. وحبه للهدوء يدفعه إلى الصبر. أسكرته الثروة مع ذلك، ولم يعد فكره يتوقف البتة إلا عند الأشياء التي تحمل له مصلحة مباشرة.

كان يصل إلى البيت وذهنه مملوء بالهموم الصغيرة الجديدة، شغل باله شكل السترة، وشكل قبعة اللباد، والحجم الكبير المناسب لبطاقات الزيارة. وكان يتكلم باستمرار عن تفاصيل البيت كلها، عن الألواح الموضوعة في خزانة غرفته لحفظ البياضات، عن مشجب المعاطف القائم في المدخل، عن الأجراس الكهربائية المهيأة للتنبيه على كل دخول خفي إلى المسكن.

وقرر بمناسبة سكنه أن يقيم نزهة ريفية في قرية (سان جوان) تليها حفلة شاي في منزله بعد العشاء حين الرجوع منها. وأراد رولاند أن يذهب إليها عن طريق البحر، ولكن بعد المسافة وعدم التيقن من الوصول المريح إن هبت الريح معارضة جعله يدفع رأيه. فاستأجروا عربة لنزهتهم. خرجوا في نحو الساعة العاشرة ليصلوا وقت الغداء. كان الطريق الواسع المغبر يمتد خلال الحقول النورماندية التي كانت تموجات سهولها ومزارعها المحاطة بالأشجار تشبه متنزهاً لا نهاية له. وكانت أسرة رولاند والسيدة روزميلي والكابتن بوسير ساكتين في العربة الماضية التي يخبّ حصاناها الضخمان، تصم آذانهم ضجة العجلات وقد أغلقوا عيونهم في سحابة الغبار.

وكان الأوان أوان نضوج الثمار، وبدت حقول البرسيم في خضرة قاتمة، ومزارع الشمندر في خضرة حيوية، والقمح الأصفر يضيء الريف بنوره الذهبي الأشقر، بدا كأنما يشرب أشعة الشمس الساقطة عليه. بدأ الفلاحون يحصدون في بعض الحقول، وظهر الرجال يتأرجحون خلال الحقول التي يهاجمونها بمناجلهم، وهم يتنزهون في الأرض المحلوقة يحملون مناجلهم الكبيرة على شكل جناح.

وبعد ساعتين من السير، أخذت العربة طريقاً إلى اليسار، مرت بقرب طاحونة هوائية تدور، تكدست وراءها بقايا أشياء رمادية نصف متعفنة، حكموا عليها بالاعدام. ثم دخلت العربة في ساحة جميلة، وتوقفت أمام بيت أنيق، نزل مشهور في البلدة. وبدت قيمة النزل وتدعى ألفونسين

الجميلة تقف متبسمة على بابه، وأمسكت بيد السيدتين اللتين ترددتا أمام الدرج العالي. كان باريسيون غرباء يتغدون تحت خيمة على طرف المرج المظلل بشجر التفاح وقد جاءوا من (إيترتا). وكان يُسمع من داخل النزل أصوات وضحك وضجيج أواني المائدة.

وتوجب عليهم أن يأكلوا في غرفة، فكل القاعات مملوءة. وفجأة ظهر رولاند تجاه سور عليه مصائد القريدس، فصاح قائلاً:

ـ آه! آه! وهل يصاد القريدس هنا؟

فأجاب بوسير.

ـ نعم، إنه عين المكان الذي يؤخذ منه أغلب ما في الشاطئ من القريدس.

ـ يا للعنة! لو نذهب إليه بعد الغداء؟

كان البحر في ذلك الوقت قد أخذه الجزر الذي سيستمر ثلاث ساعات، فقرر الجميع أن يقضوا فترة ما بعد الغداء بين الصخور ليبحثوا عن القريدس. أكلوا قليلاً لئلا يتدفق الدم إلى رؤوسهم حين تصير أقدامهم في الماء. وأرادوا كذلك أن يستبقوا أنفسهم للعشاء الذي سيقدم إليهم رائعاً، والذي سيكون جاهزاً عند الساعة السادسة وقت عودتهم.

ولم يستطع رولاند الصبر. كان يريد أن يشتري مصائد خاصة

للقريدس، تسمى (لانيه)، تشبه كثيراً تلك التي تستخدم لتعقب الفراشات في المراعي، وهي جيبان صغيران من الخيوط المربوطة في دائرة خشبية، على طرفها عصا طويلة، فأعارته إياها ألفونسين المبتسمة دائماً، ثم ساعدت المرأتين على هندام عفوي كيلا تبللا ثوبيهما، وقدمت لهما تنورتين ضخمتين طويلتين من صوف، وحذاءين رياضيين. ونزع الرجال أحذيتهم واشتروا من عند إسكاف هناك أحذية قماشية وقباقيب.

شرعوا يسيرون في الطريق، المصائد على الأكتاف، والسلال على الظهور، وكانت السيدة روزميلي في زيها ظريفة جداً، ظرافة غير متوقعة. وبدت كفلاحة جريئة، فارتفعت التنورة التي أعارتها إياها ألفونسين بلطف على الجانبين، وخيطت بقطبة خيط لتستطيع الركض والقفز بين الصخور دونما خوف.

وأظهرت تنورتها عرقوبين وجانباً من عضلة الرجل، عضلة مكتنزة لامرأة قصيرة غضّة قوية. وكان خصرها متحرراً من الزنار لتتحرك بسهولة. وغطت رأسها قبعة جنائني واسعة من القش الأصفر حوافها مفرطة البعد، ترتفع على جانبيها أغصان من شجرة الطرفاء، أعطتها هيئة فارس فخور.

كان جان يتساءل كل يوم منذ ورث المال: أيتزوج أم لا؟ وكان في كل مرة يراها هناك يقرر أن يتزوجها، ثم عندما يكون وحده، يرى لديه وقتاً طويلاً للتفكير؛ إنها الآن أقل غنى منه، لا تملك غير ١٢ ألف فرنك من الإيرادات على شكل بيوت ومزارع وأراض في الهافر قرب الأحواض، وهذا

يمكن أن يساوي فيما بعد مبلغاً ضخماً. فثروتها إذن ربما تكون مكافئة لثروته، ثم إنها تعجبه بالتأكيد هذه الأرملة الشابة. وقال لنفسه وهو يراها تمشي أمامه اليوم: «هيا، يجب أن أقرر، لا أشك أنني لن أجد خيراً منها».

تبعوا وادياً صغيراً ينزل من القرية في منحدر نحو جُرُف، وكان الجرف في طرف هذا الوادي مطلاً على البحر من ارتفاع ثمانين متراً. وكان يبدو من بعيد في الشواطئ الخضراء التي تحيط بالبحر هابطة إلى اليمين واليسار مثلث من الماء في زرقة فضية تحت الشمس، وشراع لا يكاد يظهر، يتخذ شكل حشرة. وكانت السماء المملوءة بالضياء تختلط بالماء إلى درجة لا يتميز معها قط أين ينتهي أحدهما، وأين يبدأ الآخر. وكانت المرأتان اللتان يتبعهما الرجال الثلاثة ترسمان على الأفق الواضح قامتيهما المشدودتين في قميصيهما. وكان جان في عينه البراقة ينظر أمامه هروب عرقوب السيدة روزميلي الدقيق وساقها النحيلة، وخصرها اللدن، وقبعتها الكبيرة المغوية. ونشّط الهروب رغبته، ودفعه إلى قرارات فاصلة، يتخذها المترددون والخجلون فجأة، وكان الهواء الفاتر المختلط برائحة الشاطئ، ورائحة نبات الجولق، ورائحة نبات النُّفل، ورائحة الأعشاب، ورائحة الصخور البحرية المكتشفة، ينشطه أيضاً ويسكره بلطف، فكان في كل خطوة يتقدم في قراره أكثر قليلاً، في كل ثانية، في كل نظرة تقع على سواد المرأة الشابة الرشيق. وقرر ألا يتردد بعد، أن يقول لها إنه يحبها، وإنه يرغب في الزواج منها. خدمته رحلة الصيد، فيسرت لقاءهما وجهاً لوجه، وقدمت لهما فوق ذلك إطاراً حلواً، مكاناً جميلاً للحديث عن الحب، حيث الأقدام في

أحواض الماء الصافي، وهما ينظران إلى حيوانات القريدس تفر تحت حشاش البحر.

وعندما وصلوا إلى طرف الوادي على حافة المنحدر لمحوا ممراً ينزل على طول الجرف، وكان تحتهم بين البحر وسفح الجبل بنصف ارتفاعه تقريباً ركام مفاجئ من الصخور الضخمة المنهارة المقلوبة المتكومة بعضها على بعض في متسع من السهل المعشب المتموج الممتد على مدى البصر نحو الجنوب، وقد تشكل من الانهيارات القديمة، وعلى هذا الشريط الطويل من أشواك الغابات والأرض المعشبة المهتزة كاهتزازات بركان، كانت الصخور المتساقطة تشبه أطلال مدينة كبيرة اختفت، وكانت من قبل تطل على المحيط، وأحاط بها هي ذاتها سور أبيض وشاطئ صخري لا نهاية له.

وقفت السيدة روزميلي وقالت:

ــ هذا، هذا جميل.

وكان جان قد أدركها، وقلبه متأثر، فقدم لها يده، لتنزل على الدرج الضيق المحفور في الصخرة.

ومضوا إلى الأمام، بينما تصلب بوسير على ساقيه القصيرتين، ومدّ ذراعه المطوية للسيدة رولاند التي دوخها الفراغ. ووصل رولاند وبيير بعد الجميع، فقد اضطر الطبيب أن يجرّ والده الذي أزعجه الدوار، حتى إنه ترك نفسه ينزلق درجة درجة على مؤخرته.

وكان الشابان المنحدران في المقدمة يمضيان بسرعة ، وفجأة لمحا بجانب مقعد خشبي كان مكاناً للراحة في منتصف المنحدر تقريباً خيط ماء صاف ، يندفع من ثقب صغير . كان يتدفق أولاً في حوض بقدر الطست حفره الماء نفسه ، ثم يسقط في شلال عال من ارتفاع قدمين على الأكثر ، ويتوارى خلال الممر الضيق حيث امتدت سجادة من الجرجير ، ثم يختفي في أشواك العوسج والأعشاب ، التي نمت على السهل المرتفع ، حيث تتكدس الانهيارات .

وصاحت السيدة روزميلي :

ــ آه ، ما أشد عطشي ! ولكن كيف أشرب ؟

وحاولت أن تجمع في قعر كفها الماء الذي تسرّب من خلال أصابعها . وخطر لجان أن يضع حجراً في الطريق فركعت عليه لتنهل من النبع بشفتيها اللتين كانتا على الارتفاع الذي يخرج منه الماء . وعندما رفعت رأسها المغطى بآلاف الرذاذات المتلألئة المنثورة على جلدها ، على شعرها ، على أهدابها ، على صدرها ، مال نحوها جان وتمتم يقول :

ــ كم أنت جميلة !

فأجابت باللهجة التي تستعمل لتأنيب طفل مذنب .

ــ أيمكنك أن تسكت ؟

كانت تلك هي الكلمات الأولى الغزلة قليلاً التي تبادلاها. وقال جان وهو متعكر جداً:

ـــ هيّا، فلنهرب قبل أن يدركنا الآخرون.

ولمح لتوه قريباً منهما جداً، ظهر القبطان بوسير الذي كان ينزل القهقرى، ليسند بيديه السيدة رولاند، كان رولاند أكثر ارتفاعاً، وأكثر بعداً، لا يزال ينزلق على أسفل بنطاله، ويتجرر على رجليه ومرفقيه بسرعة السلحفاة، بينما كان بيير يتقدمه ويراقب حركاته.

وخفت وعورة الممر وأصبح مخرجاً لطريق في منحدر يدور حول كتل ضخمة ساقطة فيما مضى من الجبل. وأخذت السيدة روزميلي وجان يركضان، فكانا بعد قليل على أرض محصبة قطعاها ليصلا إلى الصخور، فوجدا سطحاً طويلاً منبسطاً مغطى بالأعشاب البحرية، تلتمع فيه برك صغيرة جداً خلف هذا السهل اللزج بالنباتات البحرية، وبالخضرة الملتمعة السوداء.

ورفع جان بنطاله إلى ما تحت عضلة ساقه، وشمّر كميه إلى المرفقين فلا يبتلا، ثم قال:

ـــ هيا!

وقفز بعزم في البركة الأولى التي صادفها. وبرغم أن الشابة كانت أكثر احتراساً منه، وأنها قررت سريعاً أن تدخل الماء، إلا أنها دارت حول

البركة الضيقة في خطىً خائفة من الانزلاق على النباتات اللزجة، وقالت:

ـــ أترى شيئاً؟

ـــ نعم أرى وجهك الذي ينعكس في الماء.

ـــ إن لم تر إلا هذا، فلن تصطاد كثيراً.

فتمتم بصوت حنون:

ـــ آه! إنني أفضل هذا من بين ألوان الصيد كلها.

فضحكت قائلة:

ـــ جرب إذن، سترى كيف سيهرب الصيد من خلال مصيدتك.

ـــ سأفعل.. إذا أردتِ.

ـــ أريد أن أراك تمسك القريدس.. لا شيء غيره.. في هذه اللحظة.

ـــ أنت عفريتة. هيا نذهب إلى مكان أبعد. لا شيء هنا.

وقدم لها يده لتمشي على الصخور الرمادية، كانت تتسند خائفة قليلاً وفجأة شعر هو بالحب يغزوه، يحمل نزواته، وأنه جائع إليها، كما لو أنّ المرض الذي كانت ينبت به، قد انتظر هذا اليوم ليفرّخ. ووصلا سريعاً إلى حفرة أعمق، حيث تموجت تحت الماء المرتعش السائل باتجاه البحر البعيد،

بوساطة صدع لا يرى، أعشاب طويلة دقيقة ملونة بشكل غريب، وخصلات شعر وردية وخضراء، تبدو وكأنها تسبح. وصاحت السيدة روزميلي:

ـــ انظر! انظر، رأيت واحدة، واحدة كبيرة، واحدة كبيرة جداً هناك.

ولمحها بدوره، ونزل في الحفرة بجرأة، فتبلل حتى زناره. ولكن حيوان القريدس الذي حرك شواربه الطويلة، تراجع ببطء أمام المصيدة التي دفعها جان نحو الحشائش، وهو واثق من الإمساك به. وعندما أحس بالحصار، انزلق باندفاع فجائي إلى ما تحت المصيدة خلال العشب البحري واختفى.

ولم تستطع الشابة التي كانت تنظر بكل اختلاج إلى هذا الصيد أن تمسك هذه الصيحة:

ـــ آه! فاشل!

فاغتاظ، وبحركة لا إرادية، سحب مصيدته إلى قعر مملوء بالعشب، ورفعها إلى سطح الماء، فرأى فيها ثلاثة حيوانات كبيرة من القريدس الشفاف، اقتطفها على غير هدى من مخبئها الخفي، وقدمها منتصراً إلى السيدة روزميلي التي لم تجرؤ على أخذها خائفة من طرفها الحاد المسنن ورأسها الدقيق المسلح، وقررت مع ذلك أن تلتقطها بين أصبعيها من

الطرف الخيطي للحيتها، ووضعتها الواحدة بعد الأخرى في سلة الظهر مع قليل من نباتات البحر لتحتفظ بها حية.

ثم وجدت بركة ماء أقل احتفاراً، فدخلت فيها بقدم مترددة تشهق قليلاً من البرد الذي أخذ قدميها، وجعلت تصطاد هي أيضاً. وكانت ماهرة ذات حيل، يدها ليّنة تحس بالصيد على شكل مناسب، وفي كل مرة تقريباً تلتقط بصيدها البطيء الذكي حيواناً مخدوعاً ومندهشاً. ولم يجد جان شيئاً بعدئذ، ولكنه كان يتبعها خطوة خطوة، يمسّها، يميل عليها، يتظاهر بقنوط عظيم بسبب إخفاقه، وأنه يريد أن يتعلم. وقال:

ــ أوه! دليني، دليني!

ثم، وبينما كان ينعكس وجهاهما الواحد بجانب الآخر في الماء الرائق جداً، والذي كانت نباتات قعرة السوداء تصنع فيه مرآة صافية. كان جان يبتسم للرأس المجاور الذي ينظر إليه من أسفل، ويلقي عليه حيناً قبلة من طرف أصبعه، تبدو وكأنها تسقط من فوق. قالت الشابة:

ــ آه! كم أنت مزعج! يا عزيزي يجب ألا تفعل أبداً شيئين في وقت واحد.

فأجاب:

ــ أنا لا أفعل سوى شيء واحد. أنا أحبك.

فانتصبت، وقالت بلهجة جادة:

ــ هيا، ما جرى لك؟ هل فقدت عقلك؟

ــ لا، لم أفقد عقلي. أنا أحبك، وأجرؤ أخيراً أن أقول لك هذا.

فوقفا في المد المالح الذي يبللهما حتى عضلات سوقهما، وانسابت أيديهما مستندة على مصيدتيهما، ينظر كل منهما في أعماق عيون الآخر.

واستأنفت تقول بلهجة متفكهة مختلفة:

ــ لم أنت مغفل إذ تكلمني عن هذا في مثل هذا الوقت؟ ألا تستطيع الانتظار إلى يوم آخر، فلا تفسد عليّ صيدي؟

فتمتم يقول:

ــ عذراً، ولكنني لم أعد أستطيع أن أسكت. أنا أحبك منذ زمن طويل. واليوم قد دوختني، لتسلبي مني عقلي.

وعندئذ، وفجأة بدا عليها أنها رضخت، وانقادت لتتكلم بجد، فأقلعت عن حبورها، وقالت:

ــ لنجفف أنفسنا فوق هذه الصخرة، لنستطيع الحديث بهدوء.

وزحفا فوق صخرة عالية قليلاً، وحالما كانا عليها جنباً إلى جنب وأقدامهما متدلية في الشمس الساطعة استأنفت تقول:

ـــ يا صديقي العزيز، أنت لم تعد طفلاً، وأنا لست بنتاً صغيرة. إننا أنا وأنت نعرف القضية تماماً. ونستطيع أن نزن كل النتائج المترتبة على أفعالنا. وإذا قررت اليوم أن تصرح لي بحبك، فأنا أفترض بشكل طبيعي أنك ترغب في الزواج لي.

ولم يكن ينتظر هذا التفصيل البيّن لحالته، فأجاب ببلاهة:

ـــ طبعاً.

ـــ تكلمت بهذا مع أبيك وأمك؟

ـــ لا، فأنا أريد أن أعرف إن كنت ترضين لي.

فمدت إليه يدها التي لاتزال مبللة، وحين وضع يده فيها باندفاع قالت:

ـــ أنا أرضى حقاً، وأعتقد أنك طيب مستقيم. ولكن لا تنسى أنني لا أريد إغاظة والديك.

ـــ أوه! أتظنين أن أمي لم تتوقع، أكانت تحبك مثلما تحبك، لو لم تكن ترغب في زواجنا؟

ـــ هذا حق، أنا مضطربة قليلاً.

وسكتنا، كان هو مأخوذاً، على خلافها هي، كانت متعكرة المزاج

قليلاً ، متبصرة جداً ، وكان يتوقع منها غزلاً لطيفاً ، ورفضاً بمعنى الموافقة ، بعد كل هذه الفكاهة المتظرفة للحب المختلط بالصيد في بقبقة الماء!

وقضي الأمر ، شعر أنه ارتبط ، وأنه تزوج بعد عشرين كلمة ، ولم يعد هناك من شيء ليقوله ما داما قد وافقا ، وبقيا متحيرين قليلاً ، لسرعة ما حدث ، مرتبكين فيما بينهما ، مضطربين ، لايجرؤان على الكلام ، ولم يعودا يجرؤان على الصيد ، لا يدريان ما يصنعان .

وأنقذهما صوت رولاند يقول :

ــ من هنا ، من هنا ، أيها الأولاد! تعال لتنظر يا بوسير . أفرغ البحر ، هذا المقدام!

صاد الكابتن صيداً عجيباً . تبلل حتى صلبه . كان يذهب من بركة إلى بركة ، وهو يعرف بنظرة واحدة أفضل الأماكن. وبحركة بطيئة ومطمئنة ، ينقب بمصيدته في كل التجاويف المختفية تحت النباتات البحرية . وكانت حيوانات القريدس الشفافة بقشرة رمادية تختلج في قعر يده عندما يأخذها في حركة حادة ليلقيها في سلته .

ولم تعد السيدة روزميلي المندهشة المبهورة تتركه ، جعلت تقلده في أفضل قدراتها ، نسيت وعدها تقريباً ، ونسيت جان الذي كان يتبعها حالماً لتنصرف بكليتها إلى جمع القريدس من تحت العشب العائم في متعة طفولية .

وصاح رولاند فجأة :

ـــ عجباً هذه هي السيدة رولاند لحقتنا.

كانت أول الأمر وحيدة على الشاطئ مع بيير، لأنهما لم يرغبا لا هي ولا هو في التسلية بالجري بين الصخور، ولا في التخبط بالبرك، ومع ذلك فقد ترددا في البقاء معاً. كانت خائفة منه، وابنها كان خائفاً منها ومن نفسه، من فظاظته التي لا يسيطر عليها. كانا كلاهما تحت الشمس وقد خففت حرارتها الرياح البحرية، وامتد أمامهما الأفق الواسع للماء الأزرق الصافي المتموج بالفضة. كانا يقولان في نفسيهما «كم كانت الحياة جميلة من قبل ههنا!».

لم تجرؤ المرأة أن تتحدث إلى بيير، وهي تعرف جيداً أنه يجيب بفظاظة ولم يجرؤ هو أن يتحدث إليها، وهو يعلم أيضاً أنه يتكلم بعنف. كان يزعج الحصيات المدورة بطرف عصاه، يحركها، يضربها. وأخذت هي بعينين غائمتين بين أصابعها ثلاث حصيات صغيرات أو أربعاً، وجعلت تمررها من يد إلى أخرى بحركة آلية بطيئة. ثم لمحت وبنظرة متحيرة شاردة ابنها جان يصطاد مع السيدة روزميلي وسط حشائش البحر. فأخذت تتبعهما وتراقب حركاتهما، وفهمت على شكل غامض وبغريزة الأم أنهما لم يكونا يتكلمان كما يتكلمان عادة. رأتهما متلازمين جنباً إلى جنب، ينظران بعضهما إلى بعض في الماء، يقفان وجهاً لوجه، يسألان قلبيهما، ثم يتسلقان ويجلسان على الصخرة، يتحدثان الواحد باتجاه الآخر. كان سوادهما بارزاً بوضوح تام، بادياً وحده في وسط الأفق، يقتبسان في

الفضاء العريض، من السماء، من البحر، من الجروف، شيئاً ما من الضخامة والرمزية.

ونظر إليهما بيير أيضاً، وخرجت من شفتيه فجأة ضحكة جافة، فقالت له السيدة رولاند دون أن تستدير نحوه:

ـــ مالك؟

فقال وهو ما يزال يضحك بهزء:

ـــ أتثقف، أتعلّم كيف يتهيأ المرء ليكون مخدوعاً.

فأصابتها رجفة من غضب، من ثورة، وصدمتها الكلمة واغتاظت إذ فهمت ما يريد:

ـــ عمن تقول هذا؟

ـــ عن جان، ياللعنة! إنه لمضحك جداً أن يُرى هكذا!

فتمتمت قائلة بصوت منخفض ومرتعش من التأثر:

ـــ أوه! بيير، يالك من قاسٍ! هذه المرأة هي الاستقامة عينها، ولن يستطيع أخوك أن يجد أفضل منها.

فشرع يضحك ملء شدقيه بضحكة مقصودة مرتجة.

ـــ ها! ها! ها! الاستقامة عينها، النساء كلهن الاستقامة عينها.

وأزواجهن كلهم مخدوعون. ها! ها! ها!

وقامت من غير أن تتكلم فنزلت بحيوية منحدر الأرض المحصبة، لا تبالي خطر الانزلاق. خطر السقوط في الحفر المخبوءة تحت الحشائش، خطر انكسار ساقها أو ذراعها، ذهبت تجري تقريباً، ماشية عبر البرك، وهي لا تبصر، مشت مباشرة نحو ابنها الآخر. وعندما رآها جان تقترب صاح قائلاً:

ـــ ما بك؟ يا أماه، هل قررت؟

وبدون أن تجيب أمسكته من ذراعه، كأنما لتقول له: «خلصني، دافع عني».

ورأى اضطرابها، فقال وهو جدُّ مدهوش.

ـــ كم أنت شاحبة! مالك؟

فقالت باختلاج:

ـــ أكاد أسقط، إنني خائفة فوق هذه الصخور.

وعندئذ قادها جان، أسندها، وأخذ يتحدث عن الصيد ليسترعي انتباهها. ولما لم تستمع إليه، ولما كان كذلك شديد الحاجة إلى أن يكاشف شخصاً ما عما في نفسه، فقد جرها بعيداً، وقال بصوت خفيض.

ـــ خمني، ما الذي فعلته؟

ـــ ولكن .. ولكن .. لا أعلم .

ـــ احزري .

ـــ لا .. لا أعرف .

ـــ إذن ، لقد قلت للسيدة روزميلي ، إنني أرغب في الزواج بها .

ولم تجب بشيء ، كان رأسها يطنّ ، وروحها في ضيق إلى درجة أنها لم تفهم إلا بصعوبة . فرددت :

ـــ الزواج ؟

ـــ نعم ، هل فعلت خيراً ؟ إنها لطيفة ، أليس كذلك ؟

ـــ نعم ، لطيفة ، لقد فعلت خيراً .

ـــ وإذن فأنت توافقينني ؟

ـــ نعم .. أوافقك .

ـــ كم تقولين هذا بظرافة . كنت أعتقد أن .. أنك غير مسرورة .

ـــ طبعاً .. أنا .. مسرورة .

ـــ صحيح ؟

ـــ صحيح .

ولتبرهن له على صدق ما تقول، أمسكته من ملء ذراعه وقبلته في وجهه بقبلات عظيمة للأم.

ثم، وعندما مسحت عينيها إذ كانت فيهما دمعتان، لمحت هناك على الشاطئ جسداً ممدداً على بطنه كالجثة، وجهه على الأرض المحصبة: ذلك هو بيير، الذي كان يفكر يائساً. وحينئذ قادت ولدها جان بعيداً، وتكلما قريباً من الموج لمدة طويلة عن هذا الزواج الذي ربط قلبه.

وطردهما البحر في مدّه نحو الصيادين فلحقا بهم، ثم مضى الجميع إلى الشاطئ أيقظوا بيير الذي تظاهر بالنوم. وكان العشاء طويلاً جداً يرويه كثير من الخمر.

٧

وفي العربة على طريق العودة غفا الرجال كلهم ما عدا جان. كان بوسير ورولاند يتصادمان كل بضع دقائق، كتف كل منهما بكتف الآخر المجاور. فتوقظهما الهزة، فينتصبان عندئذ، وينقطعان عن الشخير، يفتحان أعينهما ويتمتمان:

«طقس جميل جداً» ويعاودان السقوط سريعاً إلى جهتين متخالفتين.

وعندما دخلوا الهاقر كان النعاس قد استولى عليهم لدرجة أنهم وجدوا صعوبة في إبعاده..ورفض بوسير أن يذهب إلى بيت حان حيث الشاي بانتظارهم، فودعوه أمام باب بيته.

هذه هي الليلة الأولى التي سينام فيها المحامي الشاب بمنزله الجديد، وأمسكته فجأة فرحة طفولية عظيمة، فأحب أن ترى خطيبته هذا المساء بالضبط المنزل الذي ستسكن فيه بعد حين.

كانت الخادمة قد ذهبت، فأعلنت السيدة رولاند أنها ستسخن الماء، وكانت تحب أن تقدم الشاي بنفسها، لأنها لا ترغب أن تترك الخدم يسهرون لخوفها من النار. ولم يكن دخل المنزل بعد أحد غيرها هي وابنها والعمّال، لتحتفظ بالمفاجأة تامة عندما يرون كم هو منزل جميل. وفي المدخل طلب جان منهم الانتظار، كان يريد أن يشعل الشمعات والمصابيح، فترك في الظلام السيدة روزميلي وأباه وأخاه، ثم صاح وهو يفتح الباب الكبير كله على مصراعيه: «تعالوا!».

كان الرواق الزجاجي المضاء بثريا وبقطع من الزجاج الملون المختبئ في شجيرات النخل وأشجار الكاوتشوك والأزهار يظهر كأنه زينة مسرح. وبقيت مفاجأة ثانية. دهش رولاند لهذه الرفاهية فتمتم: «يا للعنة!» وأمسكته رغبة في أن يصفق بيديه كما يفعل الناس أمام المنتصرين.

ثم دخلوا إلى الصالة الأولى، كانت صغيرة، جدرانها مفروشة بقطعة قماش بلون الذهب القديم، تشبه القماش الذي يغطي المقاعد، وكانت الصالة الكبيرة للاستشارات، وهي بسيطة جداً، حمراء كلون سمك السلمون الشاحب، فخمة المظهر.

وقعد جان على الأريكة أمام مكتبه المثقل بالكتب وقال بصوت وقور متصنع:

ـــ نعم يا سيدتي، إن نصوص القانون قطعية، وهي تمنحني مع

الموافقة التي أعلنتها لك ثقة مطلقة بأن القضية التي رافعنا فيها ستنتهي إلى حل مفرح خلال ثلاثة أشهر.

كان ينظر إلى السيدة روزميلي التي أخذت تبتسم وهي تنظر إلى السيدة رولاند، فأخذت هذه يدها وشدت عليها. وقفز جان المتألق قفزة طلاب المدارس وصاح:

ـــ هنن، كم الصوت واضح هنا، إنّ هذه الصالة مناسبة جداً للمرافعة، وأنشأ يخطب:

ـــ لئن كانت الرحمة وحدها، لئن كانت مشاعر العطف الطبيعية هذه التي نعانيها متألمين هي سبب البراءة، فنحن نتوسل بشفقتكم أيها السادة المحلفون، بقلبكم، قلب الأب، قلب الإنسان، إلا أننا نملك معها القانون، وهو السبيل الوحيد للحق الذي سنرفعه إليكم.

ونظر بيير إلى هذا المنزل الذي كان سيكون منزله، وسخط على تصرفات أخيه الذي وجده آخر الأمر شديد البلاهة، غبياً. وفتحت السيدة رولاند باباً على اليمين وقالت:

ـــ هذه هي غرفة النوم.

وأخذت في بهرجة حبها كله، حب الأم... كان قماش الجدران من (الكريتون) المصنوع في روان يحاكي النسيج النورماندي القديم. وكانت صورة للويس الخامس عشر تزين الجدار، وراعية غنم في ميدالية محاطة بمنقاري

حمامتين، تسكب على الجدران والستائر والأرائك هيئة ظريفة ريفية غاية في اللطف.

قالت السيدة روزميلي:

ـــ أوه! إن هذا لرائع.

وغدت أكثر جدية عندما دخلت الغرفة. فسألها جان.

ـــ أيعجبك هذا؟

ـــ للغاية.

ـــ فلتعلمي كم يبهجني ذلك.

وتبادلا النظر لحظة بكثير من الحنان المتوغل إلى أعماق أعينهما ومع ذلك فمنذ احتوتها غرفة النوم، التي ستكون غرفة عرسها تضايقت قليلاً، اضطربت قليلاً. ولاحظت وهي تدخل أن السرير عريض جداً، سرير زواج حقيقي، انتقته السيدة رولاند ولا شك، لأنها رغبت في زواج ابنها قريباً. وأعجبتها حيطة الأم التي تبدو وكأنها تقول لها: إنهم ينتظرونها في الأسرة.

وعندما رجعوا إلى الصالة فتح جان فجأة الباب الأيسر، فلمحوا غرفة الطعام المدورة، فسحة فيها ثلاث نوافذ مزينة بمصابيح يابانية. وضعت الأم وابنها فيها كل طرفة ممكنة، وكانت الغرفة مفروشة بأثاث الخيزران، يزينها تمثال الماغو الصيني وقطرميزات خزفية وحرائر مزركشة بالذهب وستائر

شفافة عليها لآلئ زجاجية كقطرات من ماء، ومراوح مسمّرة على الجدران لتثبيت القماش، ولوحات وسيوف وخوذات وطيور الكركي مصنوعة من ريش حقيقي، وأوان طريفة ناعمة من الخزف والخشب والورق والعاج والصدف والبرونز. كانت الغرفة ذات مظهر مغرور متكلف، صنعته أيد غير ماهرة، وأعين عير بصيرة بما تتطلبه رقة الأذواق والتربية الفنية، ومع ذلك فقد أعجبتهم أكثر من غيرها.

وأبدى بيير وحده انتقادات مشفوعة بسخرية مرة قليلاً حرحت أخاه. وانتصبت الفواكه فوق الطاولة على شكل أهرامات، وارتفعت أطباق الحلويات على شكل أنصاب تذكارية. لم يكونوا جائعين كثيراً، مصّوا الفواكه، وقضموا الحلويات قبل أن يأكلوها. ثم وبعد ساعة استأذنت السيدة روزميلي في الانصراف.

وتقرر أن يصحبها الأب رولاند حتى باب بيتها، وخرج حالاً معها، بينما كانت السيدة رولاند في غياب الخادمة تلقي نظرة أم على المنزل لئلا ينقص ابنها شيء. وسأل رولاند:

ــ أأرجع لأصطحبك؟

فترددت، ثم أجابت تقول:

ــ لا، يا حبيبي، فلتنم، وسيصحبني بيير.

وبعد أن انصرفا أطفأت الشمعات، وخبأت الكاتو والسكر والنبيذ

في الخزانة التي ردت مفتاحها إلى جان، ثم مضت إلى غرفة النوم، وكشفت السرير قليلاً، ونظرت إن كان الدورق مملوءاً بالماء البارد، وإن كانت النافذة محكمة الإغلاق. وكان بيير وجان في الصالة الصغيرة، هذا لا يزال منزعجاً من النقد الموجه إلى ذوقه، وذاك مغيظاً جداً لرؤية أخيه في هذا المنزل. كانا يدخنان جالسين، لا يكلم أحدهما الآخر. وقام بيير فجأة وقال:

ــ يااللعنة! لقد كانت الأرملة مرهقة جداً اليوم، لا تناسبها الرحلات.

وشعر جان بشيء يقيمه فجأة وعلى عجل، واعتراه غضب رجل طيب ساخط، مجروح في قلبه. ضاق نفسه، واشتد تأثره حتى إنه تلعثم وهو يقول:

ــ أنا أمنعك من الآن فصاعداً أن تقول «الأرملة» عندما تتكلم عن السيدة روزميلي!

فاستدار بيير نحوه متعالياً وقال:

ــ أعتقد أنك تعطيني أوامر. أجننت إلى هذه الدرجة؟

وانتصب جان حالاً يقول:

ــ لم أجن، ولكن تصرفاتك معي بلغت حداً كافياً.

فضحك بيير هازئاً وقال:

ـــ معك؟ هل أنت جزء من السيدة روزميلي؟

ـــ اعلم أن السيدة روزميلي ستصبح زوجتي.

فضحك الآخر بشدة أكثر:

ـــ ها! ها! حسناً جداً. فهمت الآن، لماذا لم يعد مسموحاً لي أن أدعوها «الأرملة». ولكنك سلكت إحدى الطرق الظريفة لتعلن لي خبر زواجك.

ـــ أنا أمنعك من السخرية.. تسمع.. أنا أمنعك منها!

واقترب جان شاحباً، يرتجّ صوته، مغيظاً من السخرية الموجهة للمرأة التي أحبها واختارها. وسخط بيير فجأة مثل أخيه، وتفجر في نفسه كل ما تكدس من غضب عاجز، من أحقاد مسحوقة، من ثورات مقهورة منذ زمن، من يأس صامت، وصعد ذلك كله إلى رأسه فدوّخه كضغط الدم، فقال:

ـــ هل تجرؤ؟.. هل تجرؤ؟.. وأما أنا فآمرك أن تسكت، أتسمع، أنا آمرك!.

واستغرب جان هذا العنف، فسكت بضع لحظات باحثاً في ذهنه المضطرب الذي يعصف فيه الهيجان، عن الشيء الذي يستطيع أن يجرح به أخاه في الصميم، عن الجملة، عن الكلمة.. فأجاب وهو يجهد في تمالك نفسه، ليضرب أخاه بإحكام، وفي التكلم ببطء ليكون أكثر لذعاً:

ـــ منذ وقت طويل وأنا أعرف أنك تحسدني، منذ اليوم الذي بدأت تقول فيه «الأرملة» لأنك علمت أن هذا يسبب لي الضيق.

ودفع بيير واحدة من الضحكات الصارفة المستخفة المألوفة لديه وقال:

ـــ ها! ها! يا إلهي! أحسدك!.. أنا؟.. أنا؟.. أنا؟.. وعلى ماذا؟.. على ماذا يا إلهي؟ على طلعتك أم على عقلك؟..

وأحس جان جيداً أنه أصاب الجرح في هذه النفس فقال:

ـــ نعم، أنت تغار مني، أنت حسود منذ طفولتك، وغدوت حانقاً عندما رأيت هذه المرأة تفضلني ولا تريدك.

فتلعثم بيير، واغتاظ من هذا الحدس وقال:

ـــ أنا.. أنا.. أغار منك؟ بسبب هذه البلهاء، بسبب هذه الدجاجة الحبشية، هذه الوزة السمينة؟

فأجاب جان وقد رأى أنه يكيل له الضربات:

ـــ واليوم الذي جربت فيه أن تجدف أكثر مني في مركب اللؤلؤة؟ وما قلته أمامها لترتفع في نظرها؟ ولكنك تموت من الحسد! وعندما وصلت إلي الثروة، أصبحت حانقاً، وكرهتني، وأشرت إلى ذلك بكل الوسائل،

وآلمت الناس كلهم، ولم تمر بك ساعة دون أن تمج المرارة التي تكتم أنفاسك.

وأغلق بيير قبضتيه من الهيجان، وساورته رغبة لا تقاوم في أن يقفز على أخيه، ويأخذ بحنجرته. وقال:

ــ آه! اسكت، لا تتكلم عن هذه الثروة!

فصاح جان:

ــ ولكن الحسد يرشح من جلدك. لم تتحدث مع أبي وأمي أو معي أنا بكلمة واحدة إلا والحسد ظاهر فيها. إنك تبدي احتقاري لأنك حسود! تخاصم الناس كلهم لأنك حسود. والآن، ولما أصبحت غنياً لم تعد تتمالك نفسك، أمسيت سامّاً، تنكل بأمنا كما لو أنّ ذلك غلطتها هي!

وتراجع بيير حتى المدفأة، فمه نصف مفتوح، عينه متسعة، وقد تسلطت عليه واحدة من حماقات الكَلَب التي تدفع لارتكاب الجرائم. وردد قائلاً بصوت أكثر انخفاضاً، ولكنه لاهث:

ــ اسكت، اسكت إذن!

ــ كلا. منذ وقت طويل وأنا أريد أن أبوح لك بأفكاري كاملة، وها أنتذا قد منحتني الفرصة، فيالحقارتك أنا أحب امرأة! وأنت تعرف هذا، وتسخر منها أمامي، وأنت تثير غضبي، فيالحقارتك. ولكن سأكسر أسنانك، أسنان الأفعى، أنا! سأجبرك على أن تحترمني.

ـــ أحترمك. أنت!

ـــ نعم، أنا!

ـــ أحترمك.. أنت.. الذي أخزيتنا جميعاً بطمعك؟

ـــ ماذا قلت؟ أعد.. أعد؟

ـــ أقول إنه لا ينبغي أن يقبل أحد إرثاً من رجل وهو يُعرف أنه ابن رجل آخر.

وبقي جان ساكناً لم يفهم، مشدوهاً تلقاء هذا التعريض الذي استشعره. وقال:

ـــ كيف؟ قلت.. أعد مرة أخرى؟

ـــ قلت لك الذي يتهامس به الناس كلهم، الذي ينشره الناس كلهم.. إنك ابن الرجل الذي ترك لك ثروته. والولد النظيف لا يقبل مالاً يخزي أمه.

ـــ بيير.. بيير.. بيير.. كيف تفكر بهذا؟.. أأنت.. أأنت.. أنت الذي يلفظ هذا العار؟

ـــ نعم.. أنا.. أنا. وإذن فأنت لم تر كيف كنت أموت من الكآبة، ومنذ شهر، وكيف كنت أقضي الليل ساهراً، والنهار مختبئاً كأنني حيوان.. لم أعد أعرف ما أقول ولا أعلم ماذا أفعل، ولا ما سيجري لي، إلى

درجة الألم .. إلى درجة أنني خفت من العار ومن الألم ، لأنني حدست أولاً .. وعلمت الآن .

ـ بيير .. اسكت .. أمي في الغرفة المجاورة ! فكر في أنها ربما تسمعنا .. في أنها تسمعنا .

كان يلزمه أن يفرغ قلبه ! وأن يقول كل شيء ، شكوكه ، استدلالاته ، صراعاته ، يقينه ، قصة الصورة التي اختفت مرة أخرى . كان يتكلم بجمل قصيرة مبتورة ، بدون تتابع تقريباً ، جمل رجل يهذي . وبدا الآن أنه نسي جان ونسي أمه في الغرفة المجاورة . كان يتكلم كما لو لم يكن أحد يصغي إليه ، يجب أن يتكلم لأنه كان شديد الألم ، مضغوطاً شديد الانضغاط ، يتضخم جرحه الملتئم مثل دمّلة ، وقد فقئت الآن هذه الدملة فلطخت الناس كلهم . أخذ يمشي كما يمشي كل يوم تقريباً ، عيناه مثبتتان أمامه ، يومئ في هيجان من القنوط ، وفي حنجرته شهيق . رجعت الكراهية إليه ، كان يتكلم كما لو اعترف ببؤسه وبؤس أهله ، كما لو ألقى ألمه في الهواء الأصم غير المرئي الذي تطير فيه كلماته .

واضطرب جان ، واقتنع فجأة باندفاع أخيه الأعمى . استند إلى الباب الخلفي ، وقد تنبأ أنّ أمهما كانت تسمعهما منه . لم تستطع أن تخرج ، كان يجب أن تمر من الصالة . إنها لم ترجع ، وإذن لم تكن تجرؤ .

وفجأة ضرب بيير الأرض بقدمه وصاح :

ـــ ياللعنة، قلت هذا، لأنني خنزير!

واختفى في الدرج عاري الرأس، فاستيقظ جان من خدره العميق الذي كان سقط عليه، على خبط الباب الخارجي الكبير الذي اصطفق في شدة، ومضت عليه بضع ثوان أطول من ساعات، كانت فيها روحه تسترخي في بلاهة أحمق. شعر أنه يجب عليه التفكير بسرعة والتصرف، ولكنه تريث ولم يشأ بسبب الخوف والضعف والجبن أن يفهم ولا أن يعرف ولا أن يتذكر. كان في طبعه من المسوفين الذي يؤجلون الأشياء إلى غد. وعندما يتوجب عليه اتخاذ قرار فوري يفتش بالغريـزة ليـكسب بعض اللحظات.

وفجأة أفزعه السكون العميق الذي لفه بعد زعيق بيير، السكون الفجائي النابع من الجدران والأثاث، مع الإضاءة الحية لست شمعات وسراجين اثنين، أفزعه بشدة حتى رغب في الهروب.

نفض أفكاره، هز قلبه، حاول أن يفكر.. لم يلاق في حياته قط صعوبة واحدة. إنه لمن أناس ينساقـون كالماء الجاري. تجاوز صفـوف مدرسته بجدّ ودونما عقوبة، وأنهى دراسته في القانون بانتظام لأنّ حياته كانت هادئة. وبدت له الأشياء في العالم طبيعية كلها، فلم توقظ انتباهه بوجه ما. أحب بطبعه النظام والتعقل والراحة، ولم يكن يعاني في نفسه عقداً، فظل تجاه هذه المصيبة كرجل سقط في الماء وهو لا يعرف السباحة.

حاول أن يشكّ أولاً. أيكذب أخوه بسبب حقده وغيرته؟ أليس مع

ذلك بائساً بما فيه الكفاية، تائهاً من اليأس حينما يقول عن أمهما مثل هذا. ثم إنّ جان احتفظ ببعض كلمات بيير في أذنه، في نظرته، في أعصابه، وحتى في أعماق لحمه، واحتفظ كذلك ببعض صيحات ألمه، بنغماته، بحركاته الشديدة الانزعاج التي لم تكن تقهر أو يعترض عليها وكأنها اليقين.

ظل عاجزاً لا يستطيع القيام بحركة أو التصرف بإرادة، وأصبح ضيقه لا يحتمل، وشعر أن وراء الباب أمه، هناك التي تسمع كل شيء وتنظر. ماذا تفعل؟ ما من حركة، تظهر وجود كائن خلف لوح الباب، ما من اهتزازة، ما من تنهدة. هل فرت؟ ولكن إلى أين؟ إن كانت فرت.. فقد قفزت إذن من النافذة إلى الشارع!

وأقامته رجفة من رعب، سريعة جداً، فدفع الباب دفعاً، لم يفتحه.. واندفع إلى غرفته. بدت فارغة، كانت شمعة وحيدة تضيئها، موضوعة على الصوان. واندفع جان نحو النافذة، كانت مغلقة بدرفاتها المقفلة. فاستدار ينقب في الزوايا بنظرته القلقة، فلمح ستائر السرير مغلقة فجرى وكشفها. كانت أمه ممدة في سريره، وجهها مدفون في الوسادة تشدها بكلتا يديها المتشنجتين، كيلا تسمع بعد.

اعتقد أولاً أنها اختنقت. ثم أمسكها من كتفيها، وأدارها دون أن تترك الوسادة التي تخبئ وجهها، والتي كانت تعضّ عليها لئلا تصرخ. وأوصل إليه ملامسة هذا الجسم المتصلب، وهاتين الذراعين المتشنجتين،

رجة من عذابها الذي لا يوصف. وجعلته الطاقة والقوة اللتان تمسك بهما بأصابعها وبأسنانها القماش المنفوخ بالريش على فمها، على عينيها، على أذنيها، كيلا يراها، وكيلا يكلمها، جعلته هذه الطاقة يتنبأ بالصدمة التي تلقتها، وبالحد الذي وصل إليه ألمها. وتمزق قلبه، قلبه الساذج من الشفقة. لم يصبح قاضياً بعد، هو نفسه قاضٍ رحيم. كان رجلاً مملوءاً بالضعف، وابناً مملوءاً بالحنان. لم يتذكر شيئاً مما قاله له الآخر، لم يفكر، لم يناقش، لمس فقط بكلتا يديه جسد أمه الجامد، ولم يستطع أن ينتزع الوسادة عن وجهها، صاح وهو يقبّل ثوبها:

ـــ أمي، أمي، أمي المسكينة، انظري إليّ!

وبدت ميتة لولا أن أعضاءها كلها كانت تنتابها رعدة غير محسوسة تقريباً واهتزاز لحبل ممدود. وردد يقول:

ـــ أمي، أمي، أصغي إليّ، ليس هذا صحيحاً، أعرف حقاً أن ليس هذا صحيحاً. وانتابها تشنج واختناق، ثم فجأة شهقت في الوسادة، وعندئذ استرخت أعصابها كلها، ولانت عضلاتها المتصلبة، وانفرجت أصابعها، فتركت الوسادة وكشفت وجهها.

كانت شاحبة كل الشحوب، بيضاء تماماً، أجفانها مطبقة، رأى قطرات ماء تسيل. ضمها من عنقها، وببطء قبّل عينيها قبلات كثيرة فيها أسفٌ، قد بللتها الدموع، وكان يردد:

ـــ أمي، أمي الغالية، أعلم تماماً أن هذا غير صحيح. لا تبكي، أعرف ذلك! هذا غير صحيح!

جلست، ونظرت إليه، وبجهد الشجاعة المطلوبة للانتحار في بعض الأحوال قالت له:

ـــ لا، هذا صحيح يا بني.

وبقيا صامتين لبعض لحظات، الواحد باتجاه الآخر، واختنقت وهي تمدّ حنجرتها وتقلب رأسها لتستنشق، ثم سيطرت على نفسها من جديد، واستأنفت تقول:

ـــ هذا صحيح يا بني، ولماذا الكذب؟ هذا صحيح. لو أنني كنت أكذب لما كنت تصدقني.

واتخذت هيئة مجنونةٍ أمسكها الرعب، فسقط على ركبتيه قرب السرير وهو يتمتم:

ـــ اسكتي يا أمي، اسكتي.

وقامت بتصميم وقدرة مرعبتين وقالت:

ـــ ولكن لم يعد لدي شيء أقوله لك. وداعاً يا بني.

ومشت نحو الباب، فأمسكها بملء ذراعيه وهو يصيح:

ــ ماذا تفعلين يا أمي؟ أين تذهبين؟

ــ لا أدري .. كيف أدري! .. لم يعد لدي شيء لأفعله .
وحيدة وتخبطت لتهرب . أمسكها ، لم يجد إلا كلمة واحدة يرد

ــ أمي ، أمي ، أمي ..

فقالت وهي تحاول جاهدة أن تفلت من قبضته :

ــ لا ، لا ، لم أعد الآن أمك ، لم أعد شيئاً بالنسبة إليك
إلى أي إنسان . لا شيء ، لا شيء! لم يعد لك أب ولا أم يا ولدي الم
وداعاً .

وفهم فجأة أنه لو تركها تذهب فلن يراها بعد أبداً ، ورفع
إلى أريكة ، فأجلسها بقوة ، ثم ركع على ركبتيه وقد شكّل طوقاً
حولها وقال :

ــ لن تخرجي أبداً من هنا ، يا أمي ، أنا أحبك ، وأنا أح
أحميك دائماً ، فأنت لي .

فتمتمت بصوت مرهق :

ــ كلا يا ولدي المسكين ، هذا لا يمكن ، أنت تبكي الآ
ستلقيني إلى الخارج ، ولن تعذرني في أي حال .

ــ أواه! أنا؟ أنا؟ إنك لا تعرفين عني إلا القليل .

قال ذلك باندفاع شديد لحب مخلص، حتى إنها أطلقت صيحة، فأخذت رأسه وأمسكته من شعره بملء يديها، وجرّته بعنف وقبلته بشرود في وجهه، ثم بقيت ساكنة، خدها إلى خد ولدها، وهي تشعر من خلال لحيته بحرارة لحمه، وقالت له بصوت خفيض جداً في أذنه:

ــ لا، ياولدي العزيز جان، إنك لن تعذرني غداً. إنك تعتقد ذلك وتخادع نفسك، تغفر الآن، هذا الغفران أنقذ حياتي، ولكن لم يعد من الضروري أن تراني.

فردد وهو يمسكها:

ــ أمي، لاتقولي هذا!

ــ بلى ياصغيري، يجب أن أذهب. لاأدري إلى أين، ولاكيف سأفعل، ولا ما سأقول، ولكن يجب أن أذهب. لم أعد أجرؤ أن أنظر إليك ولاأن أقبلك، أتفهم؟

وعندئذ قال لها بدوره، وبصوت هامس في أذنها:

ــ ياأمي العزيزة، ستبقين، لأنني أريد هذا، لأنني محتاج إليك، وستحلفين على موافقتي حالاً.

ــ كلا ياولدي.

ــ أواه، أمي، يجب أن تفعلي ذلك، أتسمعين، يجب.

ــ كلا يا ولدي، هذا مستحيل. هذا سيحكم علينا كلينا أن نكون في جحيم. أنا أعلم ما هذا، أنا، أعلم أنّها عقوبة بدأت منذ شهر. أنت تشفق علي. ولكنك بعد ذلك ستنظر إليّ مثلما ينظر بيير، عندما ستذكر قولي!.. أواه يا عزيزي جان، فكر.. فكر أنني أمك!..

ــ لا أريد أن تتركيني يا أمي، أنا لست إلا أنت.

ــ ولكن فكّر يا ولدي، أننا لن نستطيع أن يرى بعضنا بعضاً دون أن تعترينا حمرة الخجل كلينا، دون أن أشعر أنني أموت من الخزي، دون أن تنخفض عيناي أمام عينيك.

ــ ليس هذا بصحيح يا أماه.

ــ بلى، بلى، بلى هذا صحيح! أواه! لقد فهمت كل صراعات أخيك المسكين، كلها، منذ اليوم الأول. والآن حينما أحس بخطواته في البيت يقفز قلبي، ويكاد يكسر صدري، حينما أسمع صوته، أشعر أنني سيغمى عليّ، كنت ما تزال لي! والآن لم تعد أنت لي. أواه! يا صغيري جان، أتعتقد أنني سأستطيع أن أحيا بينكما؟

ــ نعم يا أمي سأحبك كثيراً إلى درجة تجعلك لا تفكرين بذاك.

ــ أواه! أواه! كم يستحيل ذاك!

ــ بلى هذا ممكن.

ـــ كيف تريدني ألا أفكر في ذاك بين أخيك وبينك ؟ ألن تفكرا فيه أنتما ؟

ـــ أنا ، أقسم لك .

ـــ ولكنك ستفكر به بعدد ساعات اليوم كلها .

ـــ كلا ، أحلف لك . وثم ، اسمعي : إن أنت خرجت فسأنتسب إلى الجيش ، وسأنتحر .

فهاجها هذا الوعيد الصبياني ، وعانقته وهي تمسح عليه بحنان عاطفي وأجابت :

ـــ إنني أحبك فوق ما تعتقد ، أكثر مما تعتقد ، أكثر مما تعتقد ، هيا كن عاقلاً . جرب أن تبقى فقط ثمانية أيام ، أتعدني ، ثمانية أيام؟ أنت لا تستطيع أن ترفض لي هذا الطلب؟

ووضعت يديها فوق كتفي جان ، وأخذته بطول ذراعيها وقالت :

ـــ يا بني .. لنحاول أن نكون هادئين ، وألا نتأثر . دعني أقل لك أولاً ؛ لو سمعت مرة واحدة من شفتيك ذاك الذي أسمعه منذ شهر من فم أخيك ، لو رأيت مرة واحدة في عينيك ذاك الذي أقرأه في عينيه ، لو شعرت فقط بكلمة أو بنظرة ، لو أحسست أنك تكرهني مثلما يكرهني .. وبعد ساعة سأذهب إلى الأبد ، أتسمع ، بعد ساعة .

ـ أمي، أقسمْ لك على ذلك...

ـ دعني أتكلم.. منذ شهر وأنا أتألم، بكل مايمكن أن يتألمه مخلوق، بدءاً من اللحظة التي فهمت فيها أنّ أخاك، أن ولدي الآخر يشك فيّ، وأنه يحدس الحقيقة، دقيقة بعد دقيقة، كنت أتذوق النكال في كل لحظة، وعلى وجه يستحيل معه أن أصفه لك.

كان صوتها مؤثراً، بحيث ملأت عدوى عذابها الدموع في عيني جان، أراد أن يعانقها، فدفعته قائلة:

ـ دعني.. أصغ.. عندي بعدُ أشياء كثيرة لأقولها لك لتفهم.. ولكنك لن تفهم.. ذلك أنني.. لو بقيت.. فيجب.. لا، لاأستطيع!..

ـ قولي ياأمي، قولي.

ـ حسناً، نعم، على الأقل لن أخادع.. تريد أن أبقى معك، أليس كذلك، ولهذا، فلكي نستطيع أن ننظر بعضنا إلى بعض، ونتحدث، ونلتقي كل يوم في البيت، لأنني لم أعد أجرؤ على فتح باب، أخاف أن أجد أخاك خلفه، لهذا يجب، لا لأجل أن تغفر لي، فما بقي شيء يسبب لي الألم سوى الغفران، بل لئلا تستاء مما فعلت.. يجب أن تحسّ إحساساً قوياً يختلف عن أحاسيس الناس كلهم، كي أقول لك: «لست ابن رولاند» دون أن يحمرّ وجهك من هذا، ودون أن تحتقرني!.. كفاني ماتألمت منه.. تألمت كثيراً جداً، ولم أعد أستطيع، لا، لم أعد أستطيع! لم

يكن ألمي منذ الأمس، إنه بدأ من وقت طويل.. ولكنك لن تستطيع أن تفهم هذا، أنت! ولكي نستطيع أن نعيش بعدُ معاً، ويضم بعضنا بعضاً يا عزيزي جان، يجب أن أقول لك: إنني كنت عشيقة أبيك، كنت له أكثر من ذلك، زوجة، زوجته الحقيقية، وإنني لا أحمل خزياً في أعماق قلبي، وإنني لست آسفة أبداً، وإنني لا أزال أحبه، ولو أنه مات، وإنني سأحبه مدى الأيام، وإنني لم أحب أحداً سواه، وإنه كان حياتي كلها، بهجتي كلها، أملي كله، عزائي كله.. كل شيء، كل شيء، كل شيء بالنسبة لي وخلال وقت طويل جداً! أصغ إلي يا صغيري، أقول أمام الله الذي يطلع عليّ: إنه ما كان لي شيء جميل في حياتي، لو لم ألتق به، أبداً، لا حنان، لا لطافة، لا ساعة من تلك الساعات التي تجعلنا نأسف كثيراً أسف الشيخوخة. أبداً! لا شيء، إنني مدينة له بكل شيء! لم يكن لي إلاه في العالم، ثم أنتما الاثنان، أخوك وأنت. وبدونكم كانت الحياة ستكون فارغة، سوداء، فارغة كالليل. ما كنت أحب شيئاً، ما كنت أعرف شيئاً، ما كنت أرغب بشيء. وما كنت لأبكي لأنني بكيت يا صغيري جان، أواه! بكيت عندما جئنا إلى هنا. لقد وهبت له نفسي كلها جسداً وروحاً، بسعادة دائمة وخلال أكثر من عشر سنوات، كنت زوجته أمام الله الذي جعل الواحد منا للآخر، كما كان هو زوجي. ثم فهمت أن حبه لي كان أقل من حبي له، كان طيباً دائماً، ودوداً. انتهى ذلك! أواه! كم بكيت..! كم كان ذلك تعيساً وخادعاً، الحياة!.. لا شيء يستمر.. ووصلنا إلى هنا، ولم أعد أراه، لم يأت أبداً.. كان يعد في رسائله كلها!.. كنت أنتظره دائماً!..

وماعدت أراه! وها هو ذا قد مات!.. ولكنه كان يحبنا أيضاً ما دام قد فكّر بك. أنا سأحبه حتى آخر آهة عندي، ولن أتبرأ منه أبداً، وأحبك لأنك ابنه، ولا أخجل من ذلك أمامك! هل تفهم؟ لا أخجل! فإن كنت تريد بقائي فيجب أن ترضى أبوته لك، وأن نتحدث عنه بعض الأحيان، وأن تحبه قليلاً، وأن نفكر به عندما ينظر بعضنا إلى بعض. وإن كنت لا تريد، إن كنت لا تستطيع، فالوداع ياعزيزي. ومن المستحيل أن نبقى معاً! وسأنفذ ما تقرره أنت.

فأجاب جان بصوت ناعم:

ــ ابقي يا أمي.

فشدته على ذراعيه، وشرعت تبكي من جديد، ثم استأنفت تقول، وخدها إلى خده:

ــ نعم، ولكن بيير؟ ماذا سيكون حالنا معه!

فتمتم جان:

ــ سنجد شيئاً ما، فما عدت تستطعين الحياة بقربه.

وتشنجت من الانزعاج مع ذكريات ابنها الكبير وقالت:

ــ لا، لم أعد أستطيع، لا! لا!

وصاحت وهي ترتمي على صدر جان ضيقة الروح:

ـــ خلصني منه، أنت يا بني، خلصني، افعل شيئاً ما، لست أدري.. ابحث.. خلصني!

ـــ نعم يا أمي، سأبحث.

ـــ حالاً.. يجب.. حالاً.. لا تتركني! إنني خائفة منه جداً.. خائفة جداً!

ـــ نعم سأجد، أعدك.

ـــ أوه، ولكن سريعاً، سريعاً، أنت لا تفهم ما يحدث بنفسي عندما أراه. ثم تمتمت بصوت منخفض جداً في أذنه:

ـــ خبئني هنا، عندك.

تردد، فكّر، فهم بعقله الإيجابي الخطر من هذا التدبير. ولكن كان عليه أن يبحث طويلاً، ويناقش، ويقاوم جنونها وذعرها بالحجج الدقيقة. قالت:

ـــ فقط هذه الأمسية، فقط هذه الليلة. ستبعث غداً لرولاند من يقول له: إنني كنت مريضة.

ـــ ليس هذا ممكناً مادام بيير قد كان هنا. هيا، لتتحلي بالشجاعة. سأرتب كل شيء، أعدك، منذ الغد سأكون في البيت الساعة التاسعة. هيا، البسي قبعتك، وسأوصلك.

ــ سأفعل ما تريد.

قالت ذلك باستسلام طفولي خائف وشاكر. وحاولت أن تقوم، ولكن هزتها كانت قوية جداً، فلم تستطع أن تقف على ساقيها، فسقاها ماءً محلىً وأنشقها من النشادر، وغسل صدغيها بالخل. تركته يفعل وهي محطمة. ثم سكنت آلامها كما يحدث عادة بعد الولادة. وأخيراً استطاعت أن تمشي، فأخذت ذراعه.

أعلنت الساعة الثالثة عندما مرا أمام عمارة البلدية. وقبلها أمام باب البيت، وقال لها:

ــ الوداع يا أمي، تشجعي.

صعدت بخطى خفية على الدرج الصامت، دخلت غرفتها، خلعت ملابسها بسرعة، وبالتأثر الذي تحسه الخاطئات القديمات انسلت لتنام بجانب رولاند الذي كان يشخر.. وكان بيير الساهر الوحيد في البيت. وسمع بها تعود.

٨

عندما دخل جان شقته ارتمى على الأريكة الكبيرة. كانت الكآبة والهموم التي دفعت أخاه إلى الجري والهروب كحيوان مطارد يتصرف بخلاف طبيعته الفاترة، كسرت له هو قدميه وذراعيه. شعر أنه رخو لا يقدر على الإتيان بحركة، لا يستطيع الذهاب إلى فراشه، رخو في جسده وروحه، مهشم، مدمّر. لم يُصب مثل بيير في صفاء حبه البنوي، ولم يطعن في هذا الشرف الخفي الذي هو غلاف القلوب الفخورة، بل أرهقته ضربة القدر الذي هدد في الوقت نفسه كل اهتماماته العزيزة إلى قلبه.

وعندما هدأت روحه، وعندما اتضحت أفكاره التي كانت كماء النبع عبثت به الأيدي وحركته. واجه الوضع المنكشف له. لو أنه علم سرّ ولادته بطريقة أخرى لأحسّ يقيناً بالسخط، ولتأثر من صميم فؤاده. ولكن بعد نزاعه مع أخيه، وبعد هذه الوشاية العنيفة والزعزعة الفظة لأعصابه، والانفعال الحاد في اعتراف أمه فقد قدرته على الثورة. وكانت الصدمة التي

تلقاها بحساسيته، شديدة تكفي لتطرد في حنان لا يوصف كل الأحكام المسبقة، وكل النزق المقدس لعلم الأخلاق الطبيعية. ثم إنه من جهة أخرى لم يكن رجل مقاومة. لم يكن يحب القتال ضد أحد وخاصة ضد نفسه هو؛ فاستسلم إلى الحياة الناعمة الهادئة، وبميل غريزي وحب للراحة فطري. وأحس بالقلق والخوف من الإزعاجات التي سوف تتدفق حوله وتصيبه في الوقت ذاته. وتنبأ بأنها حتمية، ولكي يبعدها قرر أن يبذل مجهوداً يفوق مجهود البشر، قدرة وحيوية. يلزمه سريعاً بدءاً من الغد أن يجتاز الصعوبة، لأنّ في طبعه حاجة ملحة للحلول الآنية التي تنشئ القوة من ضعف كان عاجزاً منذ زمن طويل عن امتلاك الإرادة. ثم إنّ روح المحامي فيه متعودة من جهة ثالثة على فصل الحالات المعقدة ودراستها، متعودة على المسائل الداخلية للأسر المضطربة؛ ولهذا كشف حالاً كل النتائج المتوقعة الحدوث من حالة أخيه النفسية، تخيّل رغماً عنه الخطوات التالية من وجهة نظر مهنية تقريباً، فكان كما لو أنه ينظم لبعض زبائنه علاقات مستقبلية بعد حادثة أخلاقية. سيستحيل أي تعامل مستمر مع بيير. أما هو فيمكن أن يتحاشى أخاه بسهولة بالبقاء في منزله، ولكن المرفوض استمرار إقامة أمهما تحت سقف يظلّ ابنها الأكبر.

وفكر طويلاً وهو ساكن على الوسائد يتخيل التدابير ويرفضها دون أن يجد تدبيراً يرضيه.

وهجمت عليه فجأة فكرة: هذه الثروة التي تسلمها، أيكون شريفاً

ذاك الذي يحتفظ بها؟ أجاب أولاً «لا». وقرر أن يؤتيها الفقراء. هذا قاس، لا بأس سيبيع أمتعته ويشتغل كالآخرين، كما يشتغل كل الذين يبتدئون حياتهم. كان هذا القرار الرجولي المؤلم يسوط شجاعته. نهض من مكانه، ومضى فوضع جبهته على الزجاج. كان فقيراً وسيعود فقيراً، ولن يميته الفقر على كل حال. نظرت عيناه إلى مصباح الغاز الذي يشتعل تجاهه في الشارع. وبينما كانت امرأة متأخرة تمر على الرصيف، خطرت بباله السيدة روزميلي فجأة. وانتفض قلبه بانفعالات عميقة تتولد في الإنسان من فكرة طاغية. وبدت له في وقت واحد كل نتائج قراره السلبية. يجب أن يعدل عن الزواج من هذه المرأة، يعدل عن السعادة، يعدل عن كل شيء، أيستطيع أن يعدل، الآن وهو الذي ارتبط بها؟ لقد رضيت به وهي تعرف أنه غني. أما وهو فقير، فإنها ترضى أيضاً؛ ألا يحق له أن يطلب منها هذه التضحية، أن يفرضها عليها؟ أهذا أحسن من الاحتفاظ بالمال أمانة يعيدها فيما بعد إلى المعوزين؟ وكانت كل اهتماماته المستترة تصطرع وتتقاتل في روحه التي تأخذ فيها الأنانية أقنعة شريفة. وتخلت الحيرة الأولى عن مكانها للحجج البارعة، ثم عاودت الظهور، ثم امّحت من جديد.

عاد فقعد، وهو يبحث عن حجة قطعية، عن عذر قوي جدا ليثبّت تردداته، وليقنع استقامته الفطرية. وطرح هذا السؤال عشرين مرة: «ما دمت ابناً لهذا الرجل الذي عرفته وقبلت به، أليس طبيعياً أن أرضى بميراثه كذلك؟» ولكن هذه الحجة لم تستطع أن تمنع كلمة «لا» التي تمتم بها وعيه الداخلي.

وفكر فجأة: طالما أنني لست ابناً لذاك الذي كنت أعتقده والدي، فلم أعد أستطيع أن أقبل منه شيئاً، لا في حياته ولا بعد موته، ليس هذا لائقاً ولا عادلاً. هذا سرقة لأخي.

أراحته هذه الطريقة الجديدة في الرؤية، وخففت من تأثره، فاستدار نحو النافذة. قال: نعم، يجب أن أتخلى عن ميراث أسرتي الذي سأتركه لبيير كاملاً، مادمت ابناً لغير أبيه، هذا صحيح. أليس صحيحاً إذن أن أحتفظ بمال أبي لي؟

وبعد الاعتراف الذي لا يمكّنه إقراره أن يستفيد من ثروة رولاند، وبعد قراره أن يتخلى عنها كاملة. وافق منساقاً أن يحتفظ بثروة ماريشال، لأنه وهو يرفضهما كلتيهما سيكون مصيره التسول فحسب.

وبعدما حلّ هذه القضية الدقيقة، عاد إلى قضية وجود بيير في الأسرة. كيف يبعده؟ ويئس أن يكتشف حلاً عملياً؛ وعندما سمع صوت إحدى السفن البخارية وهي تدخل الميناء، بدا له كأنما تلقى جواباً يوحي بفكرة، وتمدد على سريره وهو مرتد ثيابه، واستغرق في خيالاته حتى بزوغ النهار.

وفي حوالي الساعة التاسعة خرج ليتأكد إن كان تنفيذ مشروعه ممكناً، ثم، وبعد بضع جولات وزيارات، رجع إلى بيت أهله، حيث كانت أمه تنتظره معتزله في غرفتها، وقالت:

ـــ ماكنت أجرؤ على النزول أبداً لو لم تأت.

وسمع على الأثر صوت رولاند وهو يصيح على الدرج:

ـــ لن نأكل أبداً هذا اليوم، ياللعنة!

ولم يجب أحد، فزعق:

ـــ جوزفين، ياللعنة الله! ماذا تفعلون؟

وخرج صوت الخادمة من أعماق القبو:

ـــ هاأنذا، سيد... دي، ما، لـ، للك.

ـــ أين سيدتك؟

ـــ سيدتي فوق مع الـ.. سيد جان.

وعندئذ زعق وهو يرفع رأسه نحو الطابق الأعلى ونادى:

ـــ لويز؟

وفتحت السيدة رولاند الباب قليلاً وأجابت:

ـــ ماذا؟ ياصديقي؟

ـــ ألا نأكل إذن، ياللعنة.

ـــ ها نحن أولاء، ياصديقي، نحن قادمون.

ونزلت يتبعها جان. وصاح رولاند وهو يلمح الفتى:

ـــ عجباً، أنت هنا، أنت! ضجرت سريعاً من منزلك.

ـــ لا، أيها الأب، ولكن كنت أتحدث مع أمي هذا الصباح.

وتقدم جان ويده مفتوحة، وعندما أغلقت على أصابعه قبضة العجوز الأبوية، أحس بشعور غريب غير متوقع شنّجه، شعور الافتراق والوداع النهائي.

وسألت السيدة رولاند:

ـــ ألم يصل بيير؟

فهز زوجها كتفيه وقال:

ـــ لا، ولكن لا بأس، إنه يتأخر على الدوام، ولنبدأ بالأكل من دونه.

فالتفتت نحو جان وقالت:

ـــ يجب أن تذهب لتحضره يا بني، سيتألم إن لم ينتظره أحد.

ـــ نعم، ياأمي، سأذهب إليه.

وخرج الشاب، فصعد الدرج في عزم امرئ مضطرب خائف يقدم على قتال. وعندما قرع الباب أجاب بيير:

ــ ادخل.

دخل. كان الآخر يكتب عاكفاً على طاولته. قال جان:

ــ طاب يومك.

فقام بيير، وقال:

ــ طاب يومك.

ومدا أيديهما كما لو لم يحدث بالأمس شيء.

ــ ألا تريد أن تنزل لتتغدى؟

ــ ولكن.. هذا.. عندي أعمال كثيرة.

كان صوت الأكبر يرتجف، وعينه زائغة. وسأل أخاه ماذا يجب أن يفعل.

ــ إنهم ينتظرونك.

ــ آه! هل.. هل أمنا تحت؟

ــ نعم. إنها هي نفسها التي أرسلتني لأجيء بك.

— آه! إذن .. أنزل.

وأمام باب الغرفة تردد أن يظهر الأول، ثم فتحه بحركة متقطعة أباه وأمه جالسين إلى الطاولة وجهاً لوجه.

اقترب منها أولاً، ودون أن يرفع عينيه، ودون أن يلفظ كلمة، واقترب من جبهتها فقبلها فيها عوضاً عن تقبيلها في خديها كما كان يفه قبل، وأحس أنها تقرب فمها، ولكنه لم يشعر بشفتيها على جلده، واذ وقلبه يخفق بعد هذا التظاهر بالملاطفة وتساءل: «ماذا قالا بعد خروج وكان جان يردد بحنان: «أمي» و«أمي العزيزة» وهو يأخذ في العناي ويخدمها، ويسكب لها لتشرب. ففهم بيير عندئذ أنهما كانا قد بكيا ولكنه لم يستطع أن يدخل إلى أفكارهما! أكان جان يعتقد أن أمه مذنب أن أخاه شرير، وهاجمته من جديد كل المآخذ التي صنعها بنفسه الاكتشاف الفظيع، وشدت على حلقه، أغلقت فمه، فمنعته من ا ومن الحديث.

واجتاحته رغبة في الهروب شديدة لا تحتمل، رغبة أن يترك هذا ا الذي لم يعد بيته، وهؤلاء الناس الذين لم يعد يرتبط بهم إلا برباط محسوس. وأراد أن يخرج حالاً إلى أي مكان كان، وقد شعر أن الأمر انـ وأنه لم يعد يستطيع البقاء بقربهم، وأنه يعذبهم دائماً رغماً عنه، بحد وحسب، وأنهم يسببون له ألماً لا ينقطع، وعذاباً لا يطاق.

كان جان يتكلم، يتحدث مع رولاند، من غير أن يصغي إـ

بيير، من غير أن يسمع، واعتقد أنه يحس مع ذلك نيّة ما في صوت أخيه.

قال جان:

ـــ ستكون هذه فيما يبدو السفينة الأجمل في أسطولهم. يتحدثون عن ستة آلاف وخمسمئة برميل. وستقوم برحلتها الأولى في الشهر القادم.

فقال رولاند مندهشاً:

ـــ سريعاً! كنت أعتقد أنها لن تبحر أبداً هذا الصيف.

ـــ إنهم يستعجلون أعمالهم بحماس، لكي يكون العبور البحري الأول قبل الخريف.

مررت هذا الصباح بمكتب الشركة، وتحدثت مع واحد من الأعضاء.

ـــ ها! ها! ومن هو؟

ـــ السيد مارشاند، الصديق الحميم للرئيس ولمجلس الإدارة.

ـــ عجباً، أنت تعرفه؟

ـــ نعم، وكنت أطلب منه خدمة صغيرة.

ـــ آه! إذن ستمكنني من زيارة السفينة «اللوريس» عندما سترسو في الميناء، أليس كذلك؟

ـــ بالتأكيد، وهذا أمر سهل جداً!

وكان جان يبدو متردداً، يبحث عن جملة ضائعة، يواصل البحث عن كلام افتقده ينقله إلى موضوعه. واستأنف يقول:

ـــ وعلى الإجمال، فالحياة في السفينة مرضية جداً، أن يكون المرء على عابرات الأطلنطي هذه، سيمضي أكثر من نصف أشهر السنة على اليابسة في مدينتين رائعتين، نيويورك والهافر، ويبقى في البحر مع الناس الظرفاء، ويستطيع كذلك أن يطلع على معارف مستحبة جداً، مفيدة جداً، تلزمه فيما بعد، نعم مفيدة جداً بين المسافرين. تصور أن القبطان في اقتصاده بالفحم ربما يحصل على ٢٥ ألف فرنك في السنة إن لم يكن أكثر.

ونطق رولاند بكلمة «عجيب!» متبوعة بتصفيرة تشهد باحترام عميق للمبلغ والقبطان. واستأنف جان يقول:

ـــ وأمين حسابات السفينة يمكن أن يصيب عشرة آلاف، والطبيب خمسة آلاف من العلاج الثابت، مع السكن والطعام والإضاءة والتدفئة والخدمة.. إلخ، وهذا يعادل عشرة آلاف على الأقل، وهو أمر جميل جداً.

ورفع بيير عينيه فالتقتا بعيني أخيه ففهمه، وعندئذ، وبعد تردد سأل:

ـــ وهل يصعب الحصول على مكان للطبيب على عابرة الأطلنطي؟.

ـــ نعم، ولا. كل شيء يتعلق بالظروف والدعم.

وكان صمت طويل، ثم استأنف الطبيب:

ـــ أفي الشهر القادم ستنطلق «اللورين»؟

ـــ نعم، في السابع منه.

وسكتا، كان بيير يفكر: إذا استطاع أن يبحر طبيباً على السفينة، فسيكون هذا حلاً بالتأكيد، وفيما بعد سيرى ما سيفعل، ربما سيتركها، وقبل هذا يكسب لقمته دون أن يطلب شيئاً من أسرته، لقد اضطر أول أمس أن يبيع ساعته لأنه لم يعد يمد يده لأمه! وليس لديه أي دخل غير هذا، وليس لديه من وسيلة ليأكل رغيفاً آخر غير رغيف البيت الذي تتعذر فيه السكنى. ويصعب عليه النوم في سرير آخر، تحت سقف آخر، فقال متردداً قليلاً:

ـــ لو أستطيع لخرجت على السفينة راغباً في العمل بها.

فسأل جان:

ـــ ولماذا لا تستطيع؟

ـــ لأنني لا أعرف أحداً في «شركة عبر الأطلنطي».

وبقي رولاند مبهوتاً، وقال:

ـــ وكل مشاريعك الجميلة للنجاح، ماذا سيصير بها؟

فتمتم بيير:

ـــ هناك أيام يجب على المرء أن يضحي بها، ويعدل إلى الآمال الأفضل، ومع ذلك فليس هذا إلا بداية وسيلة لجمع بضعة آلاف من الفرنكات، من أجل تأمين المستقبل.

فقال الأب وقد اقتنع سريعاً:

ـــ هذا حق، خلال سنتين تستطيع أن تقتصد ستة آلاف فرنك أو سبعة، توصلك بحسن الاستعمال إلى مجال بعيد. كيف ترين يا لويز؟

فأجابت بصوت خافت مبهم:

ـــ أعتقد أن بيير على صواب.

فصاح رولاند.

ـــ ولكنني سأذهب لأتكلم مع السيِّد بولان الذي أعرفه جيداً، فهو قاضٍ في المحكمة التجارية، وهو منصرف إلى أعمال الشركة. وعندي كذلك السيد لوبنان مجهِّز السفن، صديق أحد نواب الرئيس الحميم.

وسأل جان أخاه:

ـــ أتريد أن أستشف اليوم نوايا السيد ماريشاند بالذات؟

ـــ نعم، بكل سرور.

واستأنف بيير يقول بعد أن فكّر بضع لحظات:

ـــ ربما تكون خير وسيلة أيضاً أن أكتب إلى أساتذتي في كلية الطب الذين كانوا يكنون لي تقديراً عظيماً، فالشركة تختار غالباً الأفراد العاديين، وستدفع رسائل الأساتذة الحارة، ماروسيل، فلاش، ريموسو، بوريكل، ستدفع القضية في وقت تكون فيه أفضل من كل تزكية مريبة. ويكفي أن يقدم هذه الرسائل صديقك السيد ماريشاند إلى مجلس الإدارة.

واستحسن جان هذا كل الاستحسان فقال:

ـــ فكرتك رائعة، رائعة!

وتبسم مطمئناً سعيداً على وجه التقريب، واثقاً من النجاح، عاجزاً عن الاكتئاب لمدة طويلة، وقال:

ـــ ستكتب لهم هذا اليوم بالذات؟

ـــ الساعة، حالاً سأكتب. لن أتناول القهوة، فأنا متوتر الأعصاب.

ثم قام وخرج، وعندئذ استدار جان نحو أمه قائلاً:

ـــ وأنت يا أمي، ماذا تريدين أن تفعلي؟

ـــ لا شيء.. لا أدري.

أتريدين أن تأتي معي لزيارة السيدة روزميلي؟

ـــ ولكن.. نعم.. نعم.

ـــ أتعلمين.. لا بد أن أذهب إليها اليوم.

ـــ نعم.. نعم.. هذا صحيح.

وسأل رولاند، مع أنه معتاد ألا يفهم ما يتحدثون به أمامه:

ـــ ولماذا لا بد؟

ـــ لأنني وعدتها أن أذهب إليها.

ـــ آه! حسن جداً. هذا مختلف إذن.

وشرع يحشو غليونه، بينما كانت الأم والابن يصعدان الدرج ليأخذا قبعتيهما.

وعندما كانا في الطريق سألها جان:

ـــ أتريدين أن تأخذي ذراعي يا أمي؟

وما كان يقدم لها ذراعه أبداً، لأنهما كانا قد اعتادا أن يمشيا جنباً إلى جنب، فرضيت واستندت عليه. وسكتا بعض الوقت ثم قال لها:

ـــ أترين بيير موافقاً تماماً على الذهاب؟

فتمتمت قائلة:

ـــ الولد المسكين!

ـــ لماذا، الولد المسكين؟ لن يكون تعيساً أبداً في سفينة اللورين.

ـــ لا.. أنا أعلم ذلك، ولكنني أفكّر في أشياء كثيرة.

وفكرت طويلاً وهي تمشي مخفوضة الرأس على خطوات ابنها نفسها، ثم قالت، وبذلك الصوت الغريب الذي يُتخذ في لحظات لإتمام فكرة طويلة سريّة:

ـــ إنها قبيحة، الحياة! وإن كانت في مرة جميلة فهي جانية على من يستسلم لها فيدفع الثمن غالياً فيما بعد.

فقال بصوت خفيض جداً:

ـــ لا تعودي إلى الكلام عن هذا يا أمي.

ـــ وهل هذا ممكن؟ إنني أفكر به دائماً.

ـــ ستنسين.

وسكتت، ثم قالت بأسف عميق:

ــ آه! كم كنت سأكون سعيدة لو تزوجت رجلاً آخر!

وحنقت على رولاند، وألقت مسؤولية خطيئتها كلها، وشقائها كله على قبحه، على بهيميته، على بلاهته، على ثقل روحه، على مظهر شخصه المبتذل، هذا هو السبب، ابتذاله أوجب عليها أن تخدعه، وأن تقطع أمل أحد ابنيه، وتعترف للآخر الاعتراف المؤلم الشديد الإيلام، الاعتراف الذي نزف دم قلبها، قلب الأم. وتمتمت قائلة:

ــ ما أقبح أن تتزوج الفتاة رجلاً كزوجي.

ولم يجب جان. كان يفكر بمن اعتقد أنه ابنه حتى الآن، ربما كانت الفكرة المبهمة التي حملها منذ وقت طويل عن تفاهة أبيه وسخرية أخيه المستمرة منه وعدم مبالاة الآخرين المستخفة به، وحتى عن احتقار الخادمة له، ربما كان ذلك كله قد حضّر روحه لتتلقى اعتراف أمه الفظيع. لقد كلفه ذلك على الأقل أن يكون ابن رجل آخر، ولئن لم يبد ردّة فعل بعد الزلزلة العنيفة لصدمة البارحة، ردة فعل من ثورة، من نقمة، من غضب تفزع منه السيدة رولاند، فلأنه كان منذ وقت طويل يتألم حيز اللاشعور فيه من كونه ولد هذا الرجل الثقيل الظل، الساذج.

ووصلا منزل السيدة روزميلي. كانت تسكن في شارع سانت أدرس في الطابق الثاني من عمارة ضخمة تخصّها. تطل نوافذها على ميناء الهافر كله.

وعندما رأت المرأة السيدة رولاند التي دخلت أولاً فتحت لها ذراعيها وعانقتها عوضاً أن تمدّ إليها يدها كما كانت تفعل دائماً، ذلك لأنها خمّنت سبب قدومها.

كان أثاث الصالة مخملياً لا تزال عليه أغطية، وعلقت على الجدران الملبسة بورق مزهّر أربع صور محفورة كان اشتراها زوجها القبطان. وهي تمثل مشاهد بحرية عاطفية؛ في الأولى امرأة صياد، تلوّح على الشاطئ بمنديل، بينما اختفى في الأفق الشراع الذي حمل زوجها. وفي الثانية المرأة نفسها جاثية على ركبتيها على الشاطئ نفسه تلوي ذراعيها، وهي تنظر إلى بعيد تحت السماء الساطعة، وعلى بحر ذي أمواج غير واقعية مركب زوجها يشفي على الغرق. وتمثل الصورتان الأخريان مشهدين متشابهين في طبقة اجتماعية عليا، امرأة شابة شقراء تحلم، قد أسندت مرفقيها على طرف سفينة كبيرة مبحرة تنظر بعين متحسرة بللتها الدموع إلى الشاطئ الذي صار بعيداً عنها. من الذي تركته وراءها؟ ثم المرأة الشابة ذاتها جالسة على أريكة قرب نافذة مفتوحة على المحيط مغميّ عليها، وقد سقطت رسالة من يدها على السجادة. مات إذن، يا للتعاسة! كان الزوار يتأثرون بوجه عام، وينجذبون بالحزن المبتذل لهذين الموضوعين الشفافين الشعريين، وكانوا يفهمونهما للتو بدون شرح ولا بحث، ويشفقون على المرأتين المسكينتين برغم أنهم لا يعرفون سبب كآبة المرأة المتميزة بينهما. ولكن الغموض عينه هو الذي كان يساعدهم على الخيال، ربما تكون فقدت خطيبها! وكانت اللوحات الأربع

تجتذب العين منذ الدخول، تجتذبها بقوة، وتحتجزها، كما يستولي عليها الافتتان.

ولم يتحول جان عنها إلا لأنه يأتي دائماً، يتأمل دائماً التعبيرات الأربعة للمرأتين اللتين تتشابهان كأختين. وبدا إحساس بالنظافة والاستقامة يشيع على الأخص من الرسم الواضح المجوّد المعتنى به، والمتميز على شكل النحت بذوق العصر، ومن الإطار الشديد اللمعان، مما يفخم الأثاث.

كانت الأرائك مرتبة بنظام لا يتغير، بعضها إلى الجدار، وبعضها الآخر حول المنضدة الصغيرة، والستائر البيضاء نظيفة ذات طيات مستقيمة جداً ومنظمة جداً، حتى لترغب النفس بتجعيدها قليلاً، وما من ذرة غبار على الناقوس الزجاجي، حيث وضعت ساعة مذهبة على النمط الامبراطوري، على شكل نصف كرة أرضية يحملها أطلس وهو جاث على ركبته، وكانت تبدو ناضجة كبطيخة صفراء.

وعدّلت المرأتان قليلاً، وهما قاعدتان من مكان كرسيهما المعتاد. وسألت السيدة رولاند:

ــ ألم تخرجي اليوم؟

ــ لا، أقول لك، إنني متعبة قليلاً.

وفي لون من الشكر لجان وأمه تكلمت عن كل المسرات التي حصلت عليها في النزهة والصيد وقالت:

ـــ هل تعلمان أنني أكلت هذا الصباح فريدساني . كانت لذيذة . إذا أردتما ، أعدنا تلك النزهة مرة أخرى .

فقاطعها جان قائلاً :

ـــ ما رأيك أن ننهي النزهة الأولى قبل أن نقوم بأخرى غيرها !

ـــ كيف ذلك ؟ يبدو لي أنها انتهت .

ـــ أوه ! سيدتي . لقد اصطدت من جهتي أنا في صخرة سان جوان صيداً أريد أن أحمله إلى بيتي .

فاتخذت هيئة ساذجة ماكرة . وقالت :

أنت ؟ ماذا إذن ؟ ماذا وجدت ؟

ـــ امرأة ! لقد جئنا أنا وأمي نسألك إن هي لم تغيّر رأيها هذا الصباح .

فشرعت تبتسم قائلة :

ـــ لا ، يا سيد ، أنا لم أغيّر رأيي ، أنا ..

وكان هو الذي مد يده مفتوحة عندئذ ، حيث أسقطت يدها في حركة حيوية وحاسمة . وسأل :

ـــ في أقرب وقت ممكن ، أليس كذلك ؟

ـــ عندما تريد.

ـــ ستة أسابيع.

ـــ ليس لدي فكرة. ما رأيك يا حماة الغد؟

فأجابت السيدة رولاند بابتسامة سوداوية قليلاً:

ـــ أوه! أنا، لا أفكر بشيء. أشكرك فقط لأنك رضيت بجان، لأنك ستجعلينه سعيداً جداً.

ـــ سنفعل ما نستطيعه يا أمي لسعادتنا.

وللمرة الأولى بدت السيدة روزميلي عاطفية، فقامت وأخذت بملء ذراعيها السيدة رولاند وضمتها طويلاً كما تضم طفلاً، وفي هذه الملاطفة الجديدة، نفخ التأثر القوي قلب المرأة المسكينة المريض. فلم تستطع أ ن تعبر عن مشاعرها. كان ذلك حزيناً وعذباً في آن واحد. خسرت ابنا كبيراً، وارتد إليها مكانه بنت، بنت كبيرة.

وعندما كانتا وجهاً لوجه على مقعديهما أمسكت كل منهما بيدي صاحبتها وبقيتا هكذا تنظران إحداهما إلى الأخرى وهما تبتسمان، بينما بدا عليهما أنهما نسيتا جان تقريباً.

ثم تحدثتا عن أشياء كثيرة يلزم التفكير بها من أجل هذا الزواج

المقبل. وعندما تقرر كل شيء، ونظم، تذكرت السيدة روزميلي فجأة شيئاً صغيراً، فسألت:

ـ لقد استشرتم السيد رولاند، أليس كذلك؟

فغطى الاحمرار ذاته وجنتي الأم وابنها، وأجابت الأم:

ـ أوه! لا.

ثم ترددت وهي تشعر أن الشرح ضروري، فاستأنفت تقول:

ـ إننا نفعل كل شيء، دون أن نقول له شيئاً، يكفي أن نعلمه ما قررنا.

فابتسمت السيدة روزميلي ولم تندهش قط، وحكمت على هذا أنه طبيعي إذ لا أهمية للرجل.

وعندما كانت السيدة رولاند مع ابنها في الطريق قالت:

ـ لو نذهب إلى بيتك، فأنا أريد حقاً أن أرتاح.

. كانت تشعر وكأنها بلا مخبأ، بلا ملجأ، لأنها مرعوبة من بيتها.

دخلا بيت جان. ومنذ شعرت بالباب يغلق من خلفها أطلقت آهة كبيرة، كأن قفل الباب وضع فيها الطمأنينة. وعوضاً أن تستريح كما

زعمت، بدأت تفتح الخزائن لتتحقق من أكداس البياضات وعدد المناديل والجوارب.

غيرت النظام الموضوع، لتبحث عن تنسيق أكثر انسجاماً يروق أكثر لعينها، عين مدبرة البيت، وعندما جهزت الأشياء على هواها، وضعت المناشف والسراويل الداخلية والقمصان على طاولتها الصغيرة الخاصة، ووزعت البياضات كلها على ثلاثة صفوف رئيسة، الألبسة الداخلية، وشراشف البيت، وأغطية الطاولة، تراجعت لتتأمل عملها، وقالت:

ـ جان، تعال إذن، انظر كم هذا جميل!

قام، وأعجب بما تفعل، ليدخل إلى نفسها السعادة. وفجأة، وبعدما قعد من جديد، اقتربت من أريكته بقدم خفيفة، ومن الخلف قبلته في عنقه، من جهة يده اليمنى، وضمته بيد واحدة وهي تضع على المدفأة شيئاً صغيراً مغلفاً في ورقة بيضاء كانت في يدها الأخرى. وسأل:

ـ ما هذا؟

ولما لم تجب فهم. وعرف شكل الإطار فقال:

ـ هاتيها!

لكنها تظاهرت أنها لم تسمع. واستدارت نحو الخزانة. قام، أخذ

بحيوية بقية الرفات المؤلمة، وذهب عبر المنزل يخبئها في درج مكتبه، وأدار عليها القفل دورتين. ومسحت بطرف أصابعها دمعة على طرف عينها، ثم قالت بصوت مرتجف قليلاً:

ــ الآن، سأرى إن رتبت الخادمة الجديدة المطبخ، وبما أنها خرجت، أستطيع أن أراقب كل شيء لأعرف.

٩

قدّم السيد مارشاند إلى مجلس «شركة عبر الأطلنطي» رسائل التزكية المبعوثة من الأساتذة السادة ماروسل وريموسو وفلاش وبوريكل المكتوبة بعبارات غاية في الثناء على الطبيب بيير رولاند تلميذهم، ودعم الرسائل السيد بولان القاضي في المحكمة التجارية والسيد لوينان مجهز السفن المشهور والسيد ماريفال وكيل رئيس بلدية الهافر صديق الكابتن بوسير الخاص.

وصادف أن الشركة لم تعين طبيباً لسفينة اللورين بعد، وكان لبيير حظ، فعين بعد بضعة أيام. وذات صباح عندما فرغ من هندامه قدمت له الخادمة جوزفين المغلف الذي حمل إليه خبر تعيينه. كان شعوره الأول شعور محكوم عليه بالاعدام خففوا حكمه، وشعر بألمه يتضاءل قليلاً لفكرة الرحيل، للحياة الهادئة المتأرجحة في الماء المتموج، الشاردة، الهاربة..

إنه الآن في منزل أبيه غريب صامت متحفظ. وكان يشعر منذ تفلت السر الكريه، السر الذي كشفه لأخيه أن الارتباطات بالأسرة تقطعت.

وأزعجه الندم لأنه باح به لجان. حكم على نفسه أنه مقيت قذر سيئ، مع أنّ ذاك الكلام خفف عنه. لم تعد نظراته تلتقي بنظرات أمه أو نظرات أخيه. كانت عيونهما تأخذ من أجل أن تتجنبه حركة غير متوقعة، حركة مخاتلة لعدو يخشى اللقاء. كان يتساءل دائماً: «ماذا استطاعت أن تقول لجان؟ هل اعترفت أم هل جحدت؟ ماذا يعتقد أخي؟ ما يظن بها؟ ما يظن بي؟» لم يحزر، وأصابه سخط. ومع ذلك فلم يعد يتكلم معهما تقريباً إلا بحضور رولاند، ليتقي أسئلته.

عندما تسلم الرسالة التي تخبره بتعيينه، قدمها في اليوم نفسه إلى أسرته، فصفق أبوه الذي كان شديد الميل للفرح، يفرح بكل شيء، وقال جان بلهجة جادة، في حين امتلأت روحه بالبهجة:

ــ أهنئك من كل قلبي، لأنني أعلم أن هناك منافسين كثيرين، ولا شك أنك نجحت برسائل أساتذتك.

وقبلت أمه رأسه وهي تتمتم:

ــ أنا سعيدة جداً لأنك نجحت.

وبعد الغداء ذهب إلى مكتب الشركة ليستفهم عن أشياء كثيرة، وسأل عن اسم طبيب السفينة بيكاردي التي سترحل في الغد، ليعرف منه تفاصيل الحياة الجديدة كلها، والظروف الخاصة التي سيواجهها.

كان الدكتور بيرت على الساحل، فذهب بيير إليه استقبله في غرفة

صغيرة بالسفينة، شاب أشقر اللحية يشبه أخاه. وتحدثا طويلاً. كان يسمع من الأعماق صوت بعيد، اضطراب عظيم مختلط ومستمر حيث تسقط البضائع لتتكدس في قعر السفينة، وهي تختلط بالخطوات وبالأصوات وبحركة الرافعات المحملة بالصناديق وبصفارات رؤساء العمال وضوضاء السلاسل المسحوبة أو الملفوفة على آلات رفع الأثقال بنَفَسها البخاري المبحوح التي تهز جسم السفينة الضخمة كله.

وبعد أن ترك بيير زميله وصار في الطريق، سقط عليه حزن جديد، فغلفه كالضباب الذي يجري على البحر، قادماً من طرف العالم، يحمل في سماكته غير المحسوسة شيئاً من السرية والفحش كنفثة الطاعون، جاءت من أراضٍ شريرة بعيدة.

لم يشعر قط في ساعات ألمه الأكبر أنه غرق هكذا في بالوعة من البؤس. فقد انتهى تمزقه الأخير، ولم يعد يربطه بأسرته شيء ما. لم يجرب بعد كيف تقتلع من قلبه أصول حنانه كلها، لم يجرب بعد كيف يتضايق كلب شارد أمسكوه، لم يبق له ألم أخلاقي يعذبه، بل أمسى كحيوان أحس بالذعر حينما لم يجد مخبأً، وشعر لضياعه بقلق غريزي، لم يعد لديه سقف. سوف يدهمه المطر والريح والعاصفة وكل القوى العنيفة في الدنيا.

عندما وضع رجله على هذه السفينة، وعندما دخل إلى هذه الغرفة الصغيرة المتأرجحة على الموج، ثار فيه جسم من ينام دائماً على سرير ساكن هادئ، ثار ضد اختلال الهدوء الذي سيرافقه، في كل غد من

المستقبل. وهذا الجسم يشعر الآن أنه محميٌّ بجدار صلب غائص في الأرض التي تمسكه، ويحس بتحقق راحة الجسد في المكان نفسه، وتحت سقف يقاوم الريح، فأصبح كل ما يحبه في المنزل الدافئ المغلق الذي يحميه، أصبح خطراً وألماً مستمراً. لم يعد هناك من أرض تحت الخطوات، ولكنه بحر يتموج، يزبجر يبتلع. ولم تبق حوله مسافة للنزهة، للجري، للضياع في الطرقات ولكنها بضعة أمتار من الألواح الخشبية للمشي كمحكوم عليه بين سجناء آخرين. لم تبق هناك أشجار ولا حدائق ولا طرقات ولا بيوت، لا شيء إلا الماء والغيوم، وسيشعر بلا انقطاع بالسفينة تتزعزع تحت أقدامه. ويجب عليه في أيام العاصفة أن يستند إلى الحواجز، أن يتمسك بالأبواب، أن يتعلق بحواف السرير الضيق لئلا يتدحرج على الأرض. سيستمع في الأيام الهادئة إلى ارتجاف مروحة السفينة الصاخبة، ويحسّ بها تحمله في هروب مستمر منظم يثير الحنق.. ووجد نفسه محكوماً عليه بحياة الأشغال الشاقة المتشردة وحيداً، لأنّ أمه استسلمت لمداعبة رجل.

ومضى إلى الأمام خائر القوى، وفي قلبه سوداوية موحشة يحس بها المهاجرون عادة.

لم يعد يشعر في قلبه بالاحتقار المتعجرف للآخرين، للناس المجهولين الذين يمرون أمامه، بل برغبة حزينة في أن يتحدث معهم، في أن يقول لهم: إنه سيترك فرنسا. في أن يصغوا إليه ويعزّوه. كان ذلك في أعماق قلبه حاجة مخزية ومسكينة، في أن يمدّ يده، حاجة خجلى وقوية، في أن يشعر أحد

ما بالألم لرحيله. وفكر بماروفسكو العجوز البولوني، الوحيد الذي يحبه حباً يكفي ليشعره بتأثر حقيقي وحاد، فقرر أن يذهب تواً ليراه.

عندما دخل إلى الدكان انتاب الصيدلي الذي كان يهرس مسحوقاً في قعر هاون رخامي، انتابته رجفة ضعيفة، فترك عمله. وقال:

لم يعد أحد يراك أبداً؟

فشرح الشاب أنه كان يسعى لقضايا متعددة، دون أن يكشف له عنها. وجلس وهو يسأل:

ــ حسناً، هل الأعمال تسير؟

فقال الصيدلي:

ــ إن الأعمال لا تسير. المنافسة رهيبة، المرضى قليلون وفقراء جداً. لا يمكن أن تباع في حي العمال هذا إلا الأدوية الرخيصة، والأطباء فيه لا يكتبون العلاجات النادرة المعقدة التي تكفل ربح ٥٠٠٪ وأنهى الرجل كلامه قائلاً:

ــ إذا استمرت الحال على ذلك ثلاثة أشهر أخرى توجب أن أغلق الدكان يا طبيبي العزيز، وسأعمل قريباً في مسح الأحذية.

وشعر بيير بقلبه يتقبض، فقرر فجأة أن يحمل الضربة ما دامت لازمة فقال:

— أوه! أنا.. أنا.. لم أعد أستطيع مساعدتك، سأترك الهاڤر في بداية الشهر القادم.

وكان تأثر ماروفسكو شديداً، حتى إنه أبعد نظارته وقال:

— أنت.. أنت.. ماذا قلت؟

— قلت إنني سأذهب ياصديقي المسكين.

وظل العجوز ذاهلاً، وهو يشعر بانهيار أمله الأخير، وثار فجأة على الرجل الذي تبعه، الذي أحبه، الذي وثق به كثيراً، الذي تخلى عنه ببساطة. فتلجلج قائلاً:

— ولكنك لن تخونني بدورك. أنت؟

وأحس بيير بالشفقة إلى درجة تملكته معها رغبة في أن يعانقه وقال:

— ولكنني لم أخنك، لم أجد هنا عملاً، وسأذهب طبيباً على إحدى سفن عابرات الأطلنطي.

— أوه! سيد بيير! لقد وعدتني أن تساعدني على العيش!

— وما العمل! يجب أن أحيا أنا نفسي. ليس لدي قرش من ثروة.

فردد ماروڤسكو:

ـــ هذا سيئ ، هذا سيئ ، الذي فعلته . لم يعد لي إلا الموت من الجوع . لعمري إن هذه هي النهاية ، هذا سيئ . أنت تتخلى عن عجوز فقير جاء ليتبعك ، هذا سيئ .

وأراد بيير أن يشرح ، أن يؤكد ، أن يعطي حججه ، أن يثبت أنه لم يكن يستطيع خلاف ما فعل ، فلم يصغ إليه البولوني الثائر على هذا الهروب ، وأنهى كلامه وهو يلمّح إلى الأحداث السياسية قائلاً :

أنت فرنسي كالآخرين ، أنتم لا تفون بوعودكم .

وعندئذ قام بيير مشمئزاً بدوره ، وقال بشيء من تعالٍ :

ـــ أنت ظالم أيها الأب ماروفسكو . يجب أن تكون هناك أسباب قوية دفعتني إلى ما أفعل ، ويجب أن تفهم أنت ذلك . إلى اللقاء . آمل أن أجدك أكثر تعقلاً .

خرج وهو يقول في نفسه : « وإذن ، ما من شخص يأسف لأجلي أسفاً مخلصاً » وبحث فكره ذاهباً إلى كل من عرفهم ، أو من كان يعرفهم ، فوجد وسط الوجوه العالقة في ذاكرته وجه فتاة المقهى التي كانت قد شككته بأمه . تردد وهو يحتفظ نحوها بحقد غريزي ، ثم قال لنفسه فجأة وهو يقرر : « كانت على حق مع كل ذلك » وتوجه في الطريق المؤدية إليها .

كان المقهى للمصادفة مملوءاً بالناس ، ومملوءاً أيضاً بالمدخنين . كانوا من البورجوازيين والعمال ، فاليوم يوم عيد ، كانوا ينادون ، يضحكون ،

يصيحون. ورب العمل نفسه يقوم بالخدمة راكضاً من طاولة إلى أخرى يحمل كؤوس الجعة الفارغة ويعود بها مملوءة بالرغوة.

وعندما وجد بيير مكاناً غير بعيد عن (الكونتوار) انتظر راجياً أن تراه العاملة وتعرفه. ولكنها مرت، ومرت ثانية أمامه دونما نظرة من عين. كانت تسير بتقليل من ترنح لطيف، وقدماها تخبان كفأرة تحت تنورتها. وانتهى الأمر إلى قرع الطاولة بقطعة نقود، فبادرت قائلة:

ــ ماذا ترغب يا سيدي؟

لم تنظر إليه، كان ذهنها تاهئاً في حساب المشروبات المقدمة للزبائن فقال:

ــ ما هذا؟ أهكذا يُسلم الناس على أصدقائهم؟

فثبتت عينيها عليه، وقالت بصوت مستعجل:

ــ آه! أهذا أنت. كيف حالك. ولكن ليس لدي وقت اليوم. أجعةً تريد؟

ــ نعم، كأس جعة.

وعندما حملته له استأنف يقول:

ــ جئت لأودعك. فأنا راحل.

فأجابت بلا مبالاة:

ـــ آه، باه؟ إلى أين ستذهب؟

ـــ إلى أمريكا.

ـــ يقال إنها بلاد جميلة.

ولا شيء زيادة. حقاً إنه أخرق جداً إذ يكلمها في مثل هذا اليوم، وفي المقهى كثير من الناس!

وذهب بيير نحو البحر، ورأى حين وصوله إلى الرصيف الجانبي مركب اللؤلؤة الذي كان يدخل الميناء حاملاً أباه والكابتن بوسير. كان البحار باباغري يجدف، والرجلان جالسان في المؤخرة يدخنان غليونيهما في سعادة تامة، قال الطبيب في نفسه عندما رآهم يمرون: «ما أسعد بسطاء العقول!».

جلس على أحد مقاعد كاسر الأمواج يحاول الاسترخاء في نعاس كنعاس البهائم. وعندما رجع مساء إلى البيت قالت له أمه دون أن تجرؤ على رفع عينيها إليه:

ـــ إنه يلزمك أشياء كثيرة للسفر، أنا متحيرة قليلاً، أوصيت لك اليوم على غيارات داخلية، ومررت على الخياط من أجل الثياب. ولكن، أتحتاج إلى شيء آخر لا أعرفه؟

وفتح فمه ليقول «لا، ما من شيء» لكنه استدرك في نفسه، وشعر أنه يجب أن يقبل بأدب وبلهجة هادئة جداً، فأجاب:

— لا أدري بعد، أنا، سأسأل الشركة.

واستعلم، فكتبوا له قائمة بالأشياء الضرورية. ونظرت إليه أمه للمرة الأولى وهي تتسلمها من يده، كان في أعماق عينيها تعبير ذليل جداً، حلو جداً، حزين جداً، ضارع جداً، تعبير الكلاب المسكينة المضروبة تطلب الأمان.

وفي الأول من تشرين الأول، دخلت اللورين ميناء الهاقر قادمة من ميناء (سانت نازيز) لتغادر في السابع من الشهر نفسه قاصدة (نيويورك)، ووجب على بيير رولاند أن يأخذ حاجات غرفته الصغيرة العائمة، حيث ستحتبس حياته منذ الآن.

وفي الغد عندما كان خارجاً التقى بأمه على الدرج تنتظره، وتمتمت بصوت لا يكاد يبين:

— ألا تريد أن أساعدك لتستقر على السفينة؟

— لا، شكراً، انتهى كل شيء.

فتمتمت:

— إنني أرغب كثيراً أن أرى غرفتك الصغيرة.

ـــ لا حاجة لذلك، فهي قبيحة جداً، وصغيرة جداً.

ومرّ وقد تركها منهوكة مستندة إلى الجدار شاحبة الوجه.

وخلال العشاء، لم يتحدث رولاند الذي زار اللورين في يوم وصولها نفسه إلا على هذه السفينة الرائعة، وكان شديد الاندهاش من أن زوجته لم تبد رغبة في معرفة أي شيء عن السفينة، مع أن ابنها سيبحر عليها.

ولم يُقم بيير أبداً مع أسرته خلال الأيام التالية. كان ثائر الأعصاب، سريع الانفعال، قاسياً، وبدت كلماته الفظة كأنها تسوط الجميع. ولكنه بدا فجأة عشية رحيله، متعبراً جداً، ناعماً جداً، وقال في الوقت الذي قبّل فيه أبويه قبل أن يذهب لينام في السفينة للمرة الأولى:

ـــ أسوف تأتون لوداعي غداً على السفينة؟

فصاح رولاند:

ـــ طبعاً، طبعاً، بحق الله، أليس كذلك يا لويز؟

فقالت بصوت منخفض جداً:

ـــ بالتأكيد.

فاستأنف بيير يقول:

ـــ ستغادر السفينة في تمام الحادية عشرة. يجب أن نكون هناك في التاسعة والنصف على الأكثر.

فصاح أبوه:

ـــ ها! إنها فكرة. سنذهب سريعاً لنبحر نحن في اللؤلؤة، وأنت تغادر الميناء، لننتظرك خارج الرصيف الجانبي، ولنراك أيضاً مرة أخرى. أليس كذلك يالويز؟

ـــ بلى، بالتأكيد.

فاستأنف رولاند يقول:

ـــ وبهذه الطريقة لا تضيعنا بين الجمهور الذي يزحم رصيف الميناء عادة عندما تغادره عابراتُ الأطلنطي. حين لا يمكن لأحد أن يعرف أقاربه في الزحام. ما رأيك؟

ـــ طبعاً، هذا حسن. موافق.

وبعد ساعة كان يتمدد في سريره الصغير سرير البحار الضيق الطويل كالتابوت. وبقي فيه وقتاً طويلاً، عيناه مفتوحتان، وهو يفكر بكل ما مر في حياته، وعلى الأخص في روحه منذ شهرين. كان متعباً كشفرة مثلمة لفرط ما تألم هو وآلم الآخرين، بألمه العدواني الانتقامي، ولم يعد له شجاعة لإغاظة أحد. ولسبب ما ترك ثورته تذهب هكذا مثل حياته. كان

يشعر بالتعب الشديد من القتال، من الهجوم، من الكراهية، من كل شيء لم يعد يستطيعه. وحاول أن يخدر قلبه بالنسيان، كما يقع المرء في النوم. وبشكل غائم سمع حوله أصوات ضجيج جديدة للسفينة، ضجيج خفيف، لا يكاد يدرك بالحواس، اختلطت في هدوء ليلة الميناء ولم يعد يشعر إلا بآلام يشعر بها أصحاب الجروح وهي تلتئم.

ونام نوماً عميقاً حتى أخرجته من استراحته حركة البحارة. طلع الصباح، ووصل القطار إلى رصيف الميناء مصطحباً مسافري باريس، وعندئذ تاه في وسط الناس المنشغلين القلقين الذين يبحثون عن غرفهم، يتنادون، يتساءلون، ويجيب بعضهم بعضاً كيفما اتفق، مع خوف بداية السفر. وبعد أن سلّم على القبطان وصافح زميله مندوب الميناء، دخل إلى الصالة حيث كان بعض الانكليز نائمين في الزوايا.

كانت جدران الصالة من المرمر الأبيض المحاط بإطار من خيوط ذهبية تغوص بلا نهاية في مرآة، منظور طاولاتها الطويلة يقع بين خطين غير محدودين من مقاعد دوارة مغطاة بمخمل أحمر. إنها جميلة هذه القاعة العائمة المتجولة، حيث يأكل فيها معاً كل الأشخاص الأغنياء من مختلف القارات. ترفها موسر كترف الفنادق الفخمة والمسارح والأماكن العامة. ذاك الترف المهيب والمبتذل الذي يرضي عيون أصحاب الملايين.

وذهب الطبيب ليمر على قسم السفينة المخصص لركاب الدرجة الثانية، وعندما تذكر أن قطيعاً من المهاجرين قد دخل السفينة مساء أمس

نزل إلى بطنها، فزكم أنفه وهو داخل إلى هناك رائحة مغثية لناس فقراء قذرين، نتانة لحم عار أكثر تنفيراً من أوبار البهائم أو أصوافهم. ولمح بيير في مخرج من تحت الأرض مظلم منخفض كرواق المناجم، لمح مئات من الرجال والنساء والأطفال ممددين على الأرض. لم يميز الوجوه. ولكنه كان يرى بشكل غائم الحشد الوسخ في الأسمال. جمهور البؤساء الذين قهرتهم الحياة، المنهوكين، المسحوقين، الذاهبين مع نسائهم الهزيلات وأطفالهم الضعاف إلى أرض مجهولة يرجون فيها ألا يموتوا من الجوع. وتملكت الطبيب رغبة وهو يفكر بأعمال هؤلاء المعدمين الماضية، بأعمالهم الضائعة، بجهودهم العقيمة، بكفاحهم الضاري الذي يستأنفونه كل يوم بدون طائل، بطاقتهم التي يبذلونها، هؤلاء المعدمين الذين يذهبون ليبدؤوا من جديد أيضاً دون أن يعلموا إلى أين، تملكته رغبة وهو يفكر بهذا أن يصيح بهم: «ولكن اغسلوا أنفسكم بالماء أنتم ونساؤكم وصغاركم». وشدت الشفقة على قلبه فمضى وهو لا يستطيع احتمال منظرهم.

كان أبوه وأمه وأخوه والسيدة روزميلي ينتظرونه في غرفته الصغيرة. قال لهم:

ــ الوقت مبكر جداً.

فأجابت السيدة رولاند بصوت راجف:

ــ أجل، لقد أردنا أن نكسب الوقت لنراك قليلاً.

ونظر إليها، كانت في ثياب سوداء، كما لو أنها في حداد، ولمح فجأة شعرها الذي كان لا يزال أشهب في الشهر الماضي قد صار الآن أبيض كله. قفز على سريره وقد آلمه جداً أن يجلس الأشخاص الأربعة في غرفته الصغيرة. وكان يُرى من الباب الذي ظل مفتوحاً ناس كثيرون كأولئك المارين في الطريق يوم عيد، لأن أصدقاء المسافرين كلهم، وحشداً من الفضوليين البسطاء كانوا ينتشرون في السفينة الواسعة. كانوا يتجولون في الممرات، وفي الصالات، وفي كل مكان. وكانت رؤوس تمتد داخل الحجرة، بينما كانت أصوات تتمتم في الخارج: «هذه شقة الطبيب». وحينئذ أغلق بيير الباب. ولكنه منذ شعر بنفسه حبيساً مع جماعته تملكته رغبة في فتحه، لأنّ اضطراب السفينة كان يغطي على ضيقهم وصمتهم. وأرادت السيدة روزميلي أن تتكلم فقالت:

ــ إن الهواء يأتي قليلاً من هذه النوافذ الصغيرة.

فأجاب بيير:

ــ هذه كوّة.

وأشار إلى سماكتها التي تكسب الزجاج قدرة على مقاومة الصدمات العنيفة ثم شرح باستفاضة نظام الإغلاق. وسأل رولاند بدوره:

ــ ألديك هنا صيدلية؟

ففتح الطبيب خزانة، وأراه مكتبة قوارير، تحمل أسماء لاتينية على

مربعات من الورق الأبيض. وأخذ منها قارورة ليقرأ خصائص المادة التي تحتويها، ثم تناول أخرى ثم ثالثة، وألقى محاضرة حقيقية عن العلاجات، بدا على الآخرين أنهم يستمعون إليها باهتمام كبير. وردد رولاند وهو يحرك رأسه:

ــ ما أشد فائدة هذا!

وطرق الباب بلطف، فصاح بيير:

ــ ادخل.

وظهر الكابتن بوسير، وقال وهو يمدّ يده:

ــ جئت متأخراً، لأنني ما أردت أن أضايقكم في جلستكم العاطفية.

واضطر أن يجلس على السرير أيضاً، وخيم الصمت من جديد. ولكن الكابتن أعار أذنه فجأة، فقد وصلت إليه أوامر عبر الحاجز، فأعلن:

ــ إنه وقت ذهابنا، إذا أردنا أن نبحر باللؤلؤة لنراك أيضاً في المخرج ولنقول لك وداعاً في عرض البحر.

كان الأب رولاند يرغب في ذلك كثيراً لكي يثير بلا شك مسافري سفينة اللورين. فقام مسرعاً وقال:

ــ هيا، وداعاً يا بني.

وقبل بيير من سوالفه ثم فتح الباب. ولم تتحرك السيدة رولاند، بقيت وعيونها خفيضة، ووجهها شاحب، فمس زوجها ذراعها قائلاً:

ــ هيا، فلنعجّل، ليس لدينا من دقيقة نضيعها.

فقامت، وخطت نحو ابنها، ومدت له خدين كالشمع الأبيض، واحداً بعد الآخر، فقبلها دون أن يقول كلمة. ثم شدّ على يدي السيدة روزميلي ويدي أخيه وهو يسأله:

ــ متى سيكون زواجك؟

ــ لا أدري بعد بالضبط. سنجعله يتوافق مع قدومك.

وأخيراً خرج الجميع كلهم من الغرفة وصعدوا إلى الجسر المزدحم بالناس والحمالين والبحارة.

وشخر البخار في بطن السفينة الضخمة التي بدت تهتز من نفاد الصبر.

وقال رولاند المستعجل دائماً:

ــ الوداع.

فرد بيير وهو واقف على حافة واحد من الجسور الخشبية الصغيرة التي تصل اللورين بالرصيف:

— الوداع.

وصافح من جديد الجميع كلهم. وابتعدت أسرته. وكان الأب يصيح:

— سرعة، بسرعة، إلى العربة!

كانت عربة في انتظارهم، لتقودهم إلى مقدمة الميناء حيث باباغري قد أعد مركب اللؤلؤة جاهزاً تماماً لينطلق في عرض البحر. ولم تكن هناك نسمة من هواء، فقد كان يوماً من أيام الخريف الجافة الهادئة والبحر فيه مهذب يبدو بارداً وقاسياً كالفولاذ.

أمسك جان مجدافاً، ووضع البحار المجداف الآخر على الجانب، وشرعا بالتجديف. وكان على كاسر الأمواج، وعلى رصيفي الميناء الجانبيين، وحتى على حاجز الغرانيت جمهور لا يحصى، جمهور مضطرب صاخب، وقف ينتظر اللورين. ومرت اللؤلؤة بين هاتين الموجتين من الناس، وسارت سريعاً خارج الميناء.

قعد الكابتن بوسير بين المرأتين، وأمسك الحاجز، وكان يقول:

— سترون أننا سنكون في طريقها تقريباً.

وجدّف المجدفان بكل قوتهما ليذهبا إلى أبعد مدى ممكن. وفجأة صاح رولاند:

ـــ ها هي ذي، إنني ألمح صاريها ومدخنتيها. إنها تخرج من حوض الميناء.

فردد بوسير:

ـــ تشجعا أيها الولدان.

وأخذت السيدة رولاند منديلها من جيبها ووضعته على عينيها. وكان رولاند واقفاً بثبات عند السارية وأعلن:

ـــ إنها تتحرك في هذه اللحظة أمام الميناء.. لم تعد تتحرك.. إنها تعود إلى الحركة.. إنها اضطرت أن تأخذ سفينة تجرها.. إنها تسير.. برافو! إنها تدخل بين الرصيفين الجانبيين.. هل تسمعون الجمهور الذي يصيح.. برافو!.. هذه سفينة نبتون تجرها.. إنني أشاهد مقدمتها الآن. ها هي ذي.. ها هي ذي.. يا إلهي، ما هذه السفينة! يا إلهي! انظروا إذن..! والتفتت السيدة روزميلي وبوسير، وانقطع الرجلان عن التجديف، وكانت السيدة رولاند الوحيدة التي لم تتحرك.

كانت السفينة الواسعة المسحوبة بمركب الجر القوي الذي ظهر أمامها بهيئة الدودة، تخرج ببطء وفخامة من المرفأ. وكان شعب الهافر متكدساً على الأرصفة وعلى الشاطئ وعلى النوافذ، وقد حمله فجأة حماس وطني فجعل يصيح: «فلتحيا اللورين»! وهو يهتف ويصفق لهذا الرحيل الرائع، لولادة هذه المدينة البحرية الكبيرة التي وهبت البحر أجمل بناتها،

وشعرت بالحرية أخيراً عندما جاوزت الممر الضيق المغلق بين جداري الغرانيت. وتخلت عن السفينة التي تجرها، ومضت وحدها كغول ضخم يجري على الماء. وكان رولاند يصيح على الدوام:

ــ هاهي ذي.. هاهي ذي..! إنها قادمة إلينا على استقامة.

وكان بوسير يردد متألقاً:

ــ ماذا وعدتكم، هل عرفت طريقها؟

وقال جان لأمه بصوت منخفض جداً:

ــ انظري ياأمي، إنها تقترب.

وكشفت السيدة رولاند عينيها، عينيها اللتين أعمتهما الدموع. ووصلت اللورين مندفعة بكل سرعتها منذ خروجها من المرفأ، في هذا الطقس الجميل الصاحي الهادئ. وأعلن بوسير ومنظاره موجّه عليها:

ــ انتبهوا! السيد بيير في المؤخرة وحده، واضح تماماً، انتبهوا!

ومرت السفينة عالية كجبل، سريعة كقطار فكادت أن تمسّ اللؤلؤة. ومدت السيدة رولاند ذراعيها نحوه تائهة مخبولة، ورأت ابنها، ابنها بيير، وقد ارتدى قبعته ذات الشرائط، وقذف لها بيديه الاثنتين قبلات الوداع.

ولكنه كان يذهب، يهرب، يختفي، يصبح الآن صغيراً جداً،

يمحي مثل بقعة دقيقة جداً على بناء ضخم. وكانت تجهد أيضاً لتعرفه، ولم تعد تميزه. وأخذ جان يدها قائلاً:

ـ هل شاهدت؟

ـ نعم، كم هو طيب!

وعادوا نحو المدينة. وصرح رولاند بيقين متحمس:

ـ يا للعنة! هذا ذهب سريعاً.

وكانت السفينة في الحقيقة تصغر من لحظة لأخرى كما لو كانت تذوب في المحيط. واستدارت السيدة رولاند نحوها تنظر إليها وهي تغوص في الأفق نحو أرض مجهولة في طرف آخر من العالم. فوق هذه السفينة التي لا يستطيع شيء أن يقفها، فوق هذه السفينة التي لم تعد تلمحها، كان ابنها، ابنها المسكين، وبدا لها أن نصف قلبها قد ذهب معه، وبدا لها أيضاً أن حياتها قد انتهت، وبدا لها كذلك أنها لن تراه قط. وسأل زوجها:

ـ ولماذا تبكين ما دام سيرجع قبل شهر.

فتلعثمت قائلة:

ـ لا أدري، أنا أبكي لأنني أتألم.

وعندما عادوا إلى اليابسة تركهم بوسير حالاً ليذهب إلى الغداء عند صديق له. ومضى جان في المقدمة مع السيدة روزميلي فقال رولاند لزوجته:

ـــ إن ابننا جان ذو هيئة جميلة في أحواله كلها.

فأجابت الأم:

ـــ نعم.

وبما أن نفسها كانت معكرة جداً فلم تفكر بما تقول وأضافت:

ـــ إنني شديدة الابتهاج لأنه سيتزوج السيدة روزميلي.

فاندهش الرجل الساذج وقال:

ـــ آه، باه! كيف ذلك؟ سيتزوج السيدة روزميلي.

ـــ طبعاً، كنا نفكر أن نسألك رأيك اليوم بالذات.

ـــ عجباً! عجباً! هل مضى على هذا الأمر مدة طويلة؟

ـــ أوه! لا. منذ بضعة أيام فقط. كان جان يريد أن يثق أنها تقبل به قبل أن يستشيرك.

ففرك رولاند يديه قائلاً:

ـــ حسن جداً، حسن جداً، تمام. وأنا موافق كل الموافقة.

وعندما أشرفوا على مغادرة رصيف الميناء ودخلوا في شارع فرانسوا

الأول استدارت زوجته مرة أخرى لتلقي نظرة أخيرة على البحر البعيد ولكنها لم تر إلا دخاناً قليلاً رمادياً بعيداً جداً، بعيداً جداً بدا كقليل من ضباب .

بيير وجان=PIERRE ET JEAN : رواية / تأليف غي دوموباسان ؛ ترجمة نزار أباظة ، بول كواتلان ــ ط. ١ . ــ دمشق : دار طلاس ، ١٩٨٩ . ــ ٢٢٨ ص. ؛ ١٨ سم

١ ــ ٤٨٣ ف م و ب ب ٢ ــ العنوان ٣ ــ موباسان
٤ ــ أباظة ٥ ــ كواتلان

مكتبة الأسد

رقم الإيداع ــ ١٩٨٩/٦/٩٧٨

رقم الإصدار ٤٤٤